عــواطــف دافئــة

مجموعة قصصية

وفيــه خيرى

المــؤلــــف :وفية خيرى
الكتـــــاب :عواطف دافئة
النـاشـــــر :نادى القصة
الطبعة الأولى :٢٠٠٥
رقـم الإيـداع :٩٢١١ / ٢٠٠٥

حقوق الطبع محفوظة

نـادى القصـة
٦٨ شارع قصر العينى ـ القاهرة
ت : ٧٩٤١٩٢٩



هيئة المكتب

أ. نجيب محفوظ	رئيس شرف النادى
أ. يوسف الشارونى	رئيس مجلس إدارة النادى
أ. نبيل عبد الحميد	نائب رئيس مجلس الإدارة
أ. فؤاد قنديل	سكرتير عام النادى
أ. عماد الدين عيسى	أمين صندوق النادى
أ. محمد قطب	مقرر لجنة النشر

الإهداء

إلى كل من أحببت في هذا الوطن الغالي « مصر »

أرجو أن تسود المحبة بيننا .. بدلاً من الكراهية

والسلام بدلاً من العنف

المقـدمـه

معظم قصص هذه المجموعة تحمل شحنات كبيرة من الأحاسيس والعواطف بعضها حدث بالفعل والبعض الآخر من خيال المؤلف القصص التى حدثت بالفعل تشمل « قصة حب » والحياة مرة أخرى والليل إذا جاء . البحث عن دور « ومحاورة » « وأنا وقطتى والوليف » - ولا أعنى بعبارة أنها حدثت بالفعل أنى نقلتها من الواقع كما هى ولكنى عملت فيها بخيال وأدوات الكاتب لتصبح فى القالب الذى أقدمه لكم فى هذه المجموعة .

المجموعة تشمل جزئين - الجزء الأول ويضم سته عشر قصه قصيرة أما الجزء الثانى فهو يضم ستة عشر قصة قصيرة جداً - وهذا النوع الأخير من الكتابة أصبحت أفضله الآن لأنه ينقل فكرة الكاتب إلى قرائه بشكل سريع ومقتضب مع حبكة قصصية هى .. سمات القصة القصيرة بوجه عام وأنا حين أقدم لكم هذه المجموعة يحدونى الأمل أن تصل رسالتى اليكم وهى رسالة حب .. ليس الحب بمعناه الضيق الذى يعنى العلاقة بين الرجل والمرأة فقط ولكن الحب بمعناه الواسع - فأنا حين اكتب عن الرجل المسن فى قصة «راكب المقعد الخلفى » أو المدرس الذى بلغ سن التقاعد وأصبح بلا عمل كما فى قصة شقة جارى - فالقصتين تحملان الكثير من التعاطف والحب نحو هذه الشخصيات ونحو الانسان بوجه عام كذلك الحال بالنسبة لقصة ميزان الحسنات أما قصة « علاقة خفية » و مجاورة ولم يقصد طبعاً فأنا أجرب فيها أسلوب جديد فى الكتابة بالنسبة لى - أرجو أن أكون قد وفقت فيه .

المؤلفة

قصة حب

عندما التقينا قلت فى نفسى أنه هو الذى بحثت عنه طيلة حياتى هو الحلم والأمل مجسدا فيه .. كنا شبابا فى رحاب الجامعة.. نتعلم وننهل من كنوز المعرفة وخبرة من سبقونا فى مضمار العلم ومع ذلك لم ننس أبدا حظنا من المرح واللهو والحب فأحببنا ولهونا وحلمنا وتزوجنا .

وكأننى عثرت على كنز ثمين ضممته بين ضلوعى واحتويته بين نبضات قلبى كيف أضيعه من يدى.

لا أعرف ما إذا كان قد بادلنى الحب منذ تلك اللحظة أم لا ولكنى متيقنة تماما أننى لم أحب أحداً كما أحببته ولا تفانيت فى حب أحد كما تفانيت فى حبى له وأنه هو أيضا أحبنى ولم يحب أحدا غيرى .

لازلت حتى هذه اللحظة وبعد أن عشنا معا أكثر من أربعين عاما .. لازالت صورته ماثلة امامى فى كل لحظة .. أعمل واشقى ثم أعود إلى دارى لأبكيه بعيون عزيزة وابحث عنه داخل جدران المنزل فلا اجده..

أفتقده .. أوحشنى كثيرا .. لاشئ يعوضنى عنه ..

ولا أصدق .. حتى هذه اللحظة أنه رحل عن هذه الدنيا..

أصحو من النوم أحيانا لتتمثل صورته امامى وهو يبتسم لى بكل سماحة وطيبة قلب وحب للحياة فلا أصدق انه ذهب عنى ..

أعود بذاكرتى إلى الوراء .. إلى أوائل الستينات من هذا القرن وأتذكر أول لقاء لى به فى الجامعة .

وكأن الأقدار قد وضعته فى طريقى ووضعتنى أنا فى طريقه .. لم تكن أبدا مصادفة ان تشير إلى إحدى الزميلات وتقول :

ـ ها هى تلك الواقفة هناك ـ الصديقة الحميمة لمن تبحث عنها .

تقدم منى وسألنى عنها ـ عن زميلة لى فى نفس « السكشن » ـ تجيد الرسم ..وكان ينوى باعتباره رئيسا للجنة الثقافية بكليته أن يقيم معرضا بل مهرجانا بالجامعة يعرض فيه فنون الطلبة من رسم إلى نحت الى فنون شعبية من جميع الكليات فذكروا له إسمها كهاوية للرسم « الباستيل ».

قلت له أنها لم تأت اليوم وربما أتت غدا « فليحضر غدا » للكلية وسوف أخبرها بالموضوع الذى حدثنى عنه .

عدت إلى المنزل فى ذلك اليوم وصورته لاتفارق ذهنى ـ لست ادرى لم .. كان يحمل وجها وسيما وديعا آسرا .. موضوعيته الشديدة وحماسة المتدفق وهو يشرح لى فكرته جعلتنى أشعر انه انسان مختلف عن كل من عرفت خلال دراستى بالجامعة.

وجاء الغد .. وجاءت زميلتى وتقابلا .. لم تكن نظرتها إليه كنظرتى أنا إليه لم تنفذ الى اعماقه كما نفذت انا .. فقد كانت غارقة فى حب زميل لها .. أما هو فكان حديثه معنا يتسم بمضوعيته الشديدة وقدرته على التفكير المنظم المتزن بحيث لم يدع لنا فرصة لكى نشك فى نواياه .. بل جاريناه فى أحلامه وانسقنا وراء مشروعاته ووجدنا انفسنا نشارك معه فى حلم إقامة هذا المهرجان - ومنذ تلك اللحظة لم نفترق ابدا .

أكثر من أربعين عاما عشناها معا إتسعت خلالها دائرة الأصدقاء حولنا .. تناقشنا أنجزنا .. نشرنا المحبه فى كل مكان ذهبنا إليه - سافرنا كثيرا وتعرفنا على حضارات كثيرة لسكان الدنيا.

ومرت السنين بحلوها ومرها سريعا - سريعا مرت سنوات العمر ورحل هو ولازلت انتظر دورى فى الرحيل..

واضطربت الظروف الدولية حولنا وتجمعت الغيوم فى الأفق وشعرت بحاجتى إليه أكثر من أى وقت آخر - أن احدثه - اناقشه كما كنا نفعل دائما.

آراه كثيراً فى أحلامى وأحدثه ويحدثنى واناقشه ويناقشنى واجد نفسى أتوق إلى رؤيته وسماع رأيه فى التيه الذى نعيشه وليقول لى

من المتسبب فى كل مايحدث حولنا.

عـذرا أن كنت أحـدثكم عن حكاية حب حدثت منذ أكثـر من أربعين عاما . ولكن دافعا قويا يجعلنى اود لو تعـرفونه كما عرفته وتحبـونه كما أحببته فلعل فى ذلك ما يخفف عنى مأساة فقده ..

هذا الصباح استيقظت من النوم وهى تشعر كما يقولون باللغة الدارجة وكأن « عفاريت الدنيا كلها ركبتها » وأنها على استعداد تام لارتكاب أية حماقة تعبر بها عن ثورتها وضيقتها وتبرمها بالحياة التى تعيشها ، فهى تستيقظ كل يوم صباحا لتدور وتلف كالطاحونة ، تطبخ ، تكنس ، تضع الملابس فى الغسالة ، وفى نهاية اليوم تجلس لتذاكر للأولاد إلى أن يحين موعد النوم فتنام لتعيد ما فعلته بالأمس وهكذا ، المهم أنها هذا الصباح تشاجرت مع الجميع ، مع الزوج والأولاد وأيضاً مع حماتها التى تقيم معهم ، ولو كان فى البيت شغالة لتشاجرت معها أيضا ولكن منذ أن أرتفعت أجور الشغالات وهى التى تقوم بمهامها دون أن تتقاضى أجرا على ذلك ودون أى حمد أو جميل من أهل المنزل .

بعد أن إنصرف الجميع الزوج إلى العمل والأولاد إلى المدارس والحماة إلى الثرثرة مع جارتها ، بمجرد أن أحست أنها وحدها بالمنزل حتى بدأت تسترجع حكمة قديمة كانت قد ترددت أمامها كثيرا لكنها لم تعمل بها أن « فاقد الشئ لايعطيه » وأنها لكى تسعد

الآخرين لابد أن تسعد هى أولا .

بالامس كان موعد التنظيف ، والطعام قدطهته بالمساء ووضعته بالثلاجة ليكون جاهزا بمجرد التسخين . اليوم لا أعباء وراءها .. شعرت برغبة قوية فى الخروج إلى الخلاء واستنشاق الهوآء النقى .. ارتدت بعض الملابس البسيطة التى تساعد على سهولة الحركة ووضعت فى قدميها حذاء مريحا وعقدت شعرها إلى الوراء وانطلقت إلى الخارج .

قادتها قدماها إلى حديقة واسعة انشئت حديثا بالحى لكى تكون متنفسا لأهل المنطقة خاليه من التلوث والازدحام والضجيج. وجدت نفسها تنتقى دكة خشبية بعيدة لتجلس عليها تتأمل الزهور البديعة والحشائش المنسقة والنظام والهدوء .. قالت فى نفسها ما أجمل أن يكون فى كل حى وفى كل بلد صغير حديقة مثل هذه ..

بعد لحظات وجدت العيون تحدق فيها .. لا بأس لابد أن تتحمل هذه النظرات الفضولية فقلائل هن النساء اللاتى يستطعن تخليص أنفسهن من أعباء المنزل ليجئن إلى حديقة مثل هذه ويستمتعن بكل هذا الهدوء والجمال رغم أن الحديقة مخصصة أصلا للنساء والأطفال.

بدأت فى مداعبة بعض الأطفال الصغار حولها ، جاءت أمهاتهم على الفور للإعتذار لها عن شقاوتهم وتعكيرهم لصفو هدوئها ، فى سرعة هائلة كانت قد تعرفت عليهن ودارت بينها وبينهن الأحاديث بعدها تواعدن على اللقاء الدورى بالحديقة وتبادل الزيارات.

حان موعد انصرافها ، شعرت أنها أصبحت أكثر هدوءا وأكثر قدرة على ضبط النفس والهدوء والاستقرار ، بينما هى تعبر الطريق متجهة إلى المنزل استوقفتها إحدى السيدات المسنات لتحذرها من الاندفاع فى العبور فالسيارات الان تسير بسرعه هائله غير عابئه بالمشاه فهمت انها تخشى العبور وحدها وتريدها أن تعاونها فى ذلك فهمت ذلك من التصاقها بها وارتعاشه جسدها النحيل .. أمسكت بدها وهى تعبر بها الطريق وقد زالت الكلفة بينهما . سألتها المرأة المسنة عن زوجها وأولادها وسألتها هى بدورها عن عائلتها ، علمت منها أن اليوم عيد ميلاد حفيدها الأصغر وهو يطلب منها لعبة لاتعرف من أين تشتريها ، أخذتها معها إلى محل خردواتى قريب - انتقى لهم « عم سيد الخردواتى » لعبة ظريفة كان أظرف ما فيها رخص ثمنها .. فرحت بها رفيقتها والبائع يلفها لها

فى ورق مزركش ويربطها بشريط زاهى اللون.

ابتسم لها شرطى المرور وهى تسير متأبطة ذراع المرأة المسنة.. أوقف لهما إشارة المرور ليجتازا الشارع فى أمان ، شكرته وهى تقدم له بعض قطع الحلوى مما اشترته لأبنائها لتفاجئهم بها عند عودتهم من المدارس نبهها « عم بنهاوى » المكوجى إلى أنه أرسل مرايل الأولاد للمنزل فلم يجد أحدا به ، أخذت منه المرايل بعد أن طواها لها فى عناية شكرته وهى تتعجب لحماتها الى ترفض أن تفتح الباب لأى طارق ما دامت وحدها بالمنزل خشية أن يصيبها أحدهم بسوء . قالت فى نفسها ليس فى حينا أشرار وما تسمعينه يا حماتى من شر هو شئ بعيد عن حينا الوادع الأمين ، وعرجت بعد ذلك إلى الفرن فاشترت خبزا طازجا وساندوتشات طرية فواحة للأولاد . بمرورها على عم « عبد القوى الفكهانى» نصحها أن تأخذ لها بضع كيلوات من العنب من وش القفص وصله لتوه لم يتركها د. ناجى « الصيدلى» إلا بعد أن ناولها علبة من الدواء المقوى لحماتها بعد أن اصبح شحيحا بالسوق .

فكرتها جارتها بالدور الأرضى بالعمارة أنها أول هذا الشهر

سوف تقبض مبلغ الجمعية المشتركة فيها مع لفيف من نساء الحى ٢٠٠ جنيه بالتمام والكمال وهى كفيلة بسد الكثير من طلبات والاولاد .

وجدت الجميع يحيونها ويتبسطون معها فى الحديث ، شعرت أنها لوفقدت الصحبة الطيبة بالمنزل فجميع أهل الحى أحباء وأصدقاء لها.

تذكرت تلك الايام التى عاشتها فى الصعيد عندما كان زوجها يعمل بالتدريس بإحدى مدنها. تذكرت أنها طوال مدة اقامتها هناك لم تخطو خارج بيتها وحدها ابداً كما فعلت هذا الصباح للتجول فى الحدائق وتكوين الصداقات فلم يكن فى ذلك البلد حدائق على الاطلاق ، مجرد بيوت صغيرة متلاصقة وشوارع ضيقة مزدحمة وأكوام من الزبالة والقاذورات ، حياة أدنى إلى حياة الحيوانات مع محرمات ومحظورات كثيرة وصلت إلى الحد الذى كانت تضطر المرأة إذا أرادت الخروج مع الزوج أن يحمل معه قسيمة الزواج لإبرازها لبعض الصبية الذين نصبوا أنفسهم أولياء على البشر إذ مادعت الحاجة إلى ذلك ، كآبة وجهالة وجهامة لايمكن أن يتحملها إنسان .

ولكنها تحملتها مع زوجهاعشر سنين بالكمال التمام .. بعدها أصيبت بمرض نفسى ظلت تعالج منه لعدة سنوات ..

تصورت لو أن ما حدث لها هذا الصباح من ثورة وتوتر وعصبية بسبب عنائها وشقائها اليومى فى تلبية طلبات الجميع لو كان هذا قد حدث لها فى البلد النائى الذى لم يمر عليه قطار الحضارة فى يوم من الايام تخيلت لو كان محظوراً عليها أن تخرج وحدها من المنزل وتتجول فى الحدائق العامة والمحال وتعقد الصداقات وتجرى الحوارات مع كل هؤلاء الناس الطيبين الذين قابلتهم هذا الصباح .. هل كانت ستملأ المنزل سعادة وبهجة بمجرد عودة الزوج والأولاد وتستقبلهم بمثل هذه البشاشة والترحاب ، هل كانت ستستطيع أن تضفى كل هذه السعادة على الاخرين بقية النهار لو لم تبدأ بإدخال البهجة والسعادة إلى نفسها هذا الصباح .

لم تدهش كثيرا عندما طالعتها عناوين صحف الصباح التى أتى بها زوجها عند عودته إلى المنزل وجدتها تتحدث عن حوادث الارهاب وترويع الاهالى الآمنين فى الشوارع والطرقات ، تخليت لو ان هذا حدث للحى الذى تقطن فيه وانفجرت إحدى العبوات الناسفة

فى أجساد الاطفال فى الحديقة العامة وحولت اجسادهم الصغيرة إلى اشلاء لاقدر الله ، او انفجرت فى عم « عبدالقوى الفكهانى » أو عم « سيدالخردواتى » ففتكت بهما أو مست دكتور « ناجى » بسوء فزعت لمجرد الخاطر وأجهشت بالبكاء هدأ الزوج من روعها وحاول طرد هذا الخاطر المرعب من مخيلتها لكنها ظلت تردد «فاقد الشئ لايعطيه ، كيف لهؤلاء الصبية الذين عاشوا بعيدا عن دفء العواطف ولم يعرفوا المودة والحب والبشاشة التى تميز بها أهل حينا الوادع البسيط أن يدركوا فداحة ما يفعلون ..؟»

تذكرت ما حدث لها هى ذاتها هذا الصباح ـ لو لم يدثرها أهل الحى بمحبتهم ودفء عواطفهم فبددوا وحشتها وشعورها بالثورة والعصيان فمن يدرى ما كانت سترتكبه مع أسرتها فى المساء من تصرفات حمقاء..

إذا كنت من سكان حى جاردن سيتى بالقاهرة وعشت فيه طويلا كم عشت أنا فسوف تدرك أن هذا الحى يتميز بخاصية شديدة التميز فهو حى عريق ما فى ذلك شك وسكانه من عليه القوم ليس هذا محل مناقشة .. وقد شهد هذا الحى أحداثا سياسية مثيرة أيام النحاس باشا وفؤاد سراج الدين باشا عندما كانا يقطنان فى قصرين متجاورين ـ كذلك سكن فيه د. نجيب باشا محفوظ طبيب امراض النساء المشهور والذى سمى كاتبنا الكبير على اسمه . وكان له بالحى قصر ـ لا زال موجودا حتى الآن وإن كان قد تحول إلى مقر لأحدى البنوك العربية الكبرى وكان هناك أيضاً قصر شريف باشا صبرى وداود باشا عدس المليونير اليهودى صاحب المحلات التجارية الشهيرة وغيرهم وغيرهم من الشخصيات التى تركت بصماتها على حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

كان الحى فيما مضى من أملاك ابراهيم باشا ابن محمد على باشا الكبير وكان مكونا من قصرين كبيرين يسكن فى كل منهما إحدى زوجاته فقد كان متزوجا من سيدتين احداهما الوالدة باشا الذى سمى أحد شوارع الحى باسمها . ثم قسم القصرين بعد ذلك إلى شوارع وميادين بعد أن تحول إلى حى كبير تزينه الأشجار

الكثيفة من كل جانب ، لذلك سمى جاردن سيتى أى مدينة الحدائق وسميت شوارعه باسماء اقسام القصرين وافقا لاستخدماتها مثل شارع الفسقية والبرجاس والسلاملك والحرس والديوان والطلمبات وغيرها.

خلال الحرب العالمية الثانية إحتلته جيوش الحلفاء واستولوا على كثير من بيوته وفيلاته وكانت هناك ساحة للعبة الباتيناج يتردد عليها الشباب من الأجانب المتمصرين فتيه وفتيات ومن يسيرون فى ركابهم وتصدح فيها نغمات الموسيقى الأجنبية الصاخبة فى المساء ـ كان ذلك أيام الحرب العالمية الثانية وكانت معظم منازل الحى فيلات أو قصور أو عمارات مكونة من طابقين أو ثلاثة على أكثر حال ، ثم عملت فيها معاول الهدم وحولتها إلى عمارات شاهقة سكنتها أسر من الطبقة العليا المثقفة.

اذكر منها د. مصطفى الديوانى طبيب الأطفال المعروف وعبدالرحمن بك جميعى وله بالحى فيلا جميلة تحولت للآسف الى مقلب زبالة بعد ان طالتها يد الاهمال ـ كذلك سكنت بالحى المذيعة اللامعة سلوى حجازى رحمها الله وعائلتها . والدكتور رياض فوزى طبيب المسالك البولية المعوف وحرمه السيدة زينب خيرت ابنة د. محمود باشا خيرت عضو مجلس النواب السابق وكان فى نفس

الوقت طبيب عيون مشهور ببنى سويف ـ كذلك د. منصور فايز الذى أصبح بعد ذلك الطبيب الخاص للزعيم عبدالناصر ـ وكان يسكن بنفس العمارة التى تسكن بها عائلتى..

إندمج هؤلآء المثقفون مع طبقة أثرياء الحى فى وحدة واحدة واتسم الجميع بالأصالة والخلق الكريم والتحلى بالذوق والأخلاق .

وكنت نادراً ما تجد سكان الحى يسيرون فى شوارعه فجميعهم يملكون السيارات الفارهة بسائقيها ولم يكن يرى بالحى سوى سائقى السيارات وسياسى الجراجات وبعض السفرجية والشغالات

وكانت أسرتى قد انتقلت إلى هذا الحى عام ١٩٤٠ بعد صدور أمر عسكرى من جيش الاحتلال بالخلاء بعض العمارات الكبرى منها عمارة سيف الدين الشهيرة بالحى والتى كنا نسكنها ـ وكان هذا الأمر العسكرى ينص على أن يتم ذلك خلال ٤٨ ساعة ـ فهرول سكان العمارة ومنهم أسرتى إلى نقل اثاثهم وحاجاتهم للسكنى فى أى مكان خال يرونه فى طريقهم ـ وكان أن انتقلت عائلتنا للسكنى باحدى العمارات الجديدة بالحى وظللنا نقيم بها إلى قيام الثورة وما تلا ذلك من تطورات من إنتهاء لعهد الباشوات والإقطاعيين والأثرياء الذين تدهورت أحوالهم بعد صدور قوانين المصادرة والإصلاح الزراعى وغيرها حتى أصبحت الأسر العريقة لاتجد قوت

يومها - وأذكر أننى بعد ان تزوجت وانتقلت مع زوجى فى الستينات إلى مسكن آخر بنفس الحى كنت أرى أحد كبار الباشوات السابقين يتكسب عيشه من بيع التحف النفيسة بعد أن عرضت معظم أملاكه للتأميم والمصادرة.

ومع ذلك ظل سكان الحى يحتفظون بشيئين هامين هما حرصهم على التمسك بعزة النفس والكبرياء مع دماثة الأخلاق رغم زوال المال والسلطان.

ولا أريد أن أطيل عليكم لاذكر لكم أننى كثيرا ما كنت أرى بعض كبار الشخصيات من نساء ورجال الحى من كبار السن يحملون حقيبة الخضار يشترون حاجاتهم من الجمعية التعاونية اليتيمة التى ظلت بالحى حتى الآن من بقايا عهد الاشتراكية وكانوا كثيرا ما يفاصلون مع البائع فى السعر - وأحيانا يعيدون إليه السلعة إذا ما وجدوا أنها فوق حدود طاقتهم المادية - وكنت عندما اشاهد هذا تتدفق الدموع من عينى ألما وحسرة على ما آل إليه حال سكان الحى العريق .

اسوق إليكم هذه المقدمة لكى احكى لكم عن تلك الواقعة التى شاهدتها منذ بضعة أيام فقد كنت اقف عند مفترق الطريق ابحث عن سيارة اجرة عندما مرت بى إحدى هذه السيارات نظرت داخل

السيارة فوجدت رجلا مسنا تبدو عليه مظاهر أرستقراطية غابرة فى حوالى الثمانين من عمره يجلس فى المقعد الخلفى ومعه لفائف كثيرة ، جلست أنا بجوار السائق الذى طمأننى إلى ان راكب المقعد الخلفى سوف ينزل فى شارع قريب وبعدها انتقل أنا لاجلس مكانه.

كانت عينا راكب المقعد الخلفى تتحركان يمينا ويسارا فى محاولة يائسة للتعرف على الطريق الذى يمكن أن يوصله إلى منزله بعد أن تغيرت الاتجاهات فى الشوارع بالحى وأصبح طريق الكورنيش إتجاها واحدا وكذلك الحال بالنسبة للعديد من شوارع الحى وخاصة بعد ان إحتلت البنوك والشركات معظم المبانى به وكثر عدد السيارات بحيث أصبح شاقا على أى سيارة أن تجد طريقها فى يسر وسهولة داخل الحى المزدحم.

كان جالس المقعد الخلفى يشير للسائق إلى طريق ثم يعدل عن رأيه فيشير إليه أن يسلك طريقا آخر فأصبحنا نلف وندور فى حلقة مفرغة من شارع إلى آخر فى محاولة يائسة للوصول إلى الشارع الذى به مسكنه.

نظر إلى الراكب المسن قائلا انه آسف على ما سببه لى من متاعب وأضاف أنه لايخرج وحده كثيرا وقد تغيرت معالم الحى بحيث أصبح من الصعب عليه أن يعرف أى الشوارع توصله إلى

منزله.

كنا قد أصبحنا ندور ونلف حول أنفسنا فى يأس عندما تهلل وجه الراكب المسن فجأة عندما بدأت معالم الطريق تتفتح أمامنا فى هذه اللحظة صاح فى فرحة طفل وجد لعبته فجأة بعد أن طال بحثه عنها « ها هو منزلى » كانت عمارة فخمة عريقة - وقفت سيارة الأجرة أمامها - نظرت أنا إلى السائق فى هذه اللحظة وأنا على يقين أنه سوف ينفجر من الثورة والغضب ولكنى وجدته هادئا تماما لاتظهر على وجهه أى مظاهر ضيق أو ضجر .. بل وجدت الهدوء يكسو وجهه وهو يقول لراكب المقعد الخلفى : الحمد لله على السلامة.

قال الراكب فى خجل للسائق : لى طلب أخير عندك يا إبنى أن تنادى على البواب لكى يحمل عنى حاجاتى ويساعدنى على النزول من السيارة نادى « ياسيد » وسوف يأتى إليك على الفور.

جاء البواب على النداء وحمل حاجات الراكب وهو يمد يده ليساعده على النزول من السيارة.

أخرج الراكب قدميه فى صعوبه من سيارة التاكسى وهو يصدر عدة تأوهات تدل على ألم ساقيه الشديد عند النزول وهو يقول للسائق فى صوت واهن :

- سوف أكافئك على تعبك معى.

ثم ناوله أجره مضافا إليه ورقة مالية تصفحتها عينى فى فضول فوجدتها ورقة فئة الخمسين قرشا ـ كانت هى مكافأته للسائق على كل ما بذله معه من تعب ووقت .

توقعت أن يثور السائق وأن يعيد إليه الخمسين قرشا فما قيمة مبلغ كهذا فى هذا الزمن ، ولو كان راكبا من الأثرياء الجدد لما أعطاه أقل من خمسة جنيهات مكافأة له ..

احسست بالاحراج فقلت للسائق :

ـ لقد فقد القدرة على التمييز فلعله يتصور أن الخمسين قرشا تساوى شيئا فى هذا الزمن كما كانت فيما مضى .

رد السائق الشاب فى أدب ودمائه خلق :

ـ أنا أعرف ظروف هؤلاء الناس جيدا فقد كنت أعمل لدى أسرة من أسر هذا الحى ولكنى لم استمر معهم طويلا فقد وجدوا أن مرتبى يفوق كثيرا حدود إمكانياتهم المادية فباعوا عرباتهم وأصبحوا يستقلون التاكسيات مثل راكبنا هذا . إدعى له بالشفاء يا اختى فما أصعب أن ترى عزيز قوم ذل وخاصة إذا كان فى هذه السن المتقدمة .

الصبـــر

« أن الشعوب تظفر بحريتها ليس بسبب الصبر - ولكن بفضل رفضها الصبر على ما يحدث » هذه العبارة قالها الناقد الألمانى لودفيج بيرنى وظللت ألوكها أنا فى فمى طوال طريق عودتى من عملى فى ذلك اليوم الذى ظللت فيه السحابة السوداء كل شئ حولى بلونها الداكن ورائحتها النفاذة الخانقة حتى شعرت أننى قد تلونت بلونها وأننى أكاد اختنق بدخانها فضلا عن شعورى بالاختناق أصلا لما حدث .

لقد كنت على وشك الترقى ولكنهم تخطونى فى الترقية ورقوا زميلة لى لاتمتاز بأى موهبة .. ظللت أصرخ « هذا ظلم » . ظلم لا أستطيع تحمله ..

ضحكت زميلة لى وقالت ..

كل شئ بثمن ..

صرخت أنا :

- أى ثمن هذا الذى دفعته وهى لاتملك اى مسحة من جمال أو أنوثة.

عقبت أخرى :

- ومن قال لك إن الثمن يجب أن يكون فى صورة تنازلات مثل هذه .. ألم تدركى بعد أننا نحن النساء قد استوعبنا الدرس جيدا ولم نعد نقدم أجسادنا ثمنا لما نريد أن نحصل عليه .. إن زوج زميلتنا هذه التى تخطتك فى الترقية يعمل بالجمارك وهو يسهل للرؤساء ..

صرخت فيها :

- فهمت .. لاتكملى ..

هى مصالح مشتركة إذا .. فماذا أستطع أن أقدمه أنا .. فلا زوج لى ، ولا أخ ، لا ابن يمكنه أن يقدم مثل هذه الرشاوى المقنعة..

راحت الزميلة المحظوظة تختال فى تيه وزهو بين جنبات المكان..

لمست بنفسى مدى ازدراء الزملاء لها وتألمت .. ولم تتألم هى.. سمعت الهمسات الجارحة ولم تخجل هى وخجلت أنا . ظلت على زهوها وسعادتها فماذا يهمها ما دامت قد حصلت على الترقية.

دخلت المنزل فصافحنى صوت صراخ هائل من ابن شقيقتى الطفل البالغ من العمر خمس سنوات .. احتضنته بين ذراعى وهدهدته..

- أريد أن ألعب مع أصدقائى أمام باب العمارة وماما تمنعنى

.. طيبت خاطره ودخلت حجرتى ولا زال صوت صراخة يملأ أرجاء المنزل .أمسكت بكتاب كان قد أعطاه لى زميل وأوصانى بقراءته ، رواية هى عن مجموعة من الفلاحين المصريين انتزعتهم سلطة الاحتلال البريطانى وأرغمتهم على العمل فى صفوف الجيش الإنجليزى أثناء الحرب العالمية الأولى .. ألقيت بالرواية جانبا .. أعصابى لم تعد تتحمل أشياء مثل هذه..

« أوقفوا صراخ هذا الطفل »

فتحت التليفزيون لعله يسرى عنى ويزيل ما بى من حنق وأسى .. شاهدت أعزل يغتاله جنود مدججو السلاح وجنازات حارة للضحايا تؤكد التصميم على مواصلة النضال

« أوقفوا صراخ هذا الطفل »

لكم بذلت من جهد في عملي .. لكم ثقفت نفسي ..لكم أتقنت هذا العمل وكم من عطاءقدمته له وانتظرت الجزاء .. لم أجد سوي الجحود ونكران الجميل .

اختاروا زميلتي وتخطونى أنا.. لم أعد أستطيع أن أغير شيئا.. زميلتي تملك الاسلحة التى لا أملكها أنا وتجيد قواعد اللعبة .. كل خدمة لابد أن تقابلها خدمة مماثله .. هكذا يقولون لست متأكدة من

شئ ،أقاويل كثيرة عن علاقه زوجها برؤسائها

في العمل الذي تجني هى ثماره .

هل أظل أتجرع مرارة الهزيمة راضية .. قانعة .. كيف !!!

أسكتوا صراخ هذا الطفل .. أعطوه ما يريد فأنا أتمزق »

..أعيش فى منزل شقيقى .. لى حجرة خاصة بى أغلق بابها علي دائما .. لكن صراخ الطفل يخترق الجدران ويتسلل لى عبر النافذة ويملأ الحجرة بأنات وصراخات لا استطيع تحملها .

- كل شيء له أوانه يا ابنتي .. والله يرزق من يشاء بغير حساب .. وله في كل شيء حكمة .. الصبر .. الصبر يا ابنتى مفتاح الفرج .. المهم اتقان العمل ...والله سبحانة وتعالى يحب من يحسن عمله ولا يضيع أجره مطلقا.

هذا ما كان يقوله لى أبى دائما .. ولقد سرت على دربه وتشبعت بحكمته .. واتقنت عملى .. عشقته .. تفانيت فيه إلى حد الوله .. ومع ذلك لم أجاز على ذلك .

وجدت وجوه الرؤساء حولى مصفرة وعيونهم زائغة .. لم أكن بالنسبة لهم ذات فائدة .. فهم لايهمهم جودة العمل بقدر ما يهمهم ما يعود عليهم هم شخصيا بالفائدة

- ظلم !!!

ظللت أصرخ « هذا ظلم »

دوى صراخى فى انحاء المنزل .. فتحت باب حجرتى وظللت أبكى وأصرخ هذا ظلم !!! .

بهت كل من حولى وأولهم شقيقتى .. خرجت من المطبخ مهرولة وحدقت فى دهشة .. ماذا حدث !!!

كل ما يحدث حولى ظلم .. وظلم فاحش .. حتى صراخ هذا الطفل ظلم لماذا تحرمونه مما يريد ..لماذا تتركونه يصرخ هكذا...

- عرفتك دائما عاقلة .

- لم يعد فى عقل .. أضاعوه كما أضاعوا كل شىء ثمين فى حياتنا .. أصبحنا نعيش فى ضياع وتمزق ونهوى فى هوة سحيقة من الفراغ واللا معنى .. نكاد ننشطر وتنفلق من الغيظ والكمد ..

- الصبر يا اختى .. الصبر ..

برزت أمامى العبارة الشهيرة فى كلمات متقطعة .

«الشعوب .. الحرية .. الصبر .. رفض الصبر »

-ولكن الثورة لن تجلب لك سوى المتاعب يا اختى وأنت تعرفين جيدا أن لا ظهر لك .

- وهولاء الناس الذين نراهم ليل نهار على شاشة التليفزيون أمامنا يقاتلون وهم يحملون النعوش على أكتافهم .. هل كان وراءهم ظهر !!!

سكت الطفل عن الصياح وهو يرانى أبكى فى حرقة وقد بللت الدموع وجنتى وضع يده الصغيرة على كتفى وسألنى :

*** لماذا تبكين يا خالتى !!!

نظرت إليه فى أسى وأنا أراه قد كف عن البكاء وسكنت الدموع فى عينيه ، ضممته الى صدرى فى حب وأنا أسمع صوت أبى يهمس لى «الصبر يا ابنتى الصبر.

بثرة على الوجه

كثيرا ما تضيق بنا الحياة فنشعر أنه لم يعد فيها جديد وأنه يمكن تلخيص الحياة فى عبارات ثلاث كما قال القدماء :

نولد .. ثم نتعذب .. ثم نموت

وهذا ما حدث لى مؤخرا .. فقد وضعت نصب عينى أن الحياة ليست ملكا لنا وأنها لا تدوم وإن بها شراسة وقبحا وقسوة ما يمكن أن يزلزل الإنسان ويقتلعه من جذوره تماما فإذ به كالريشة فى مهب الريح .. وعشت على ذلك عامين كاملين كنت أسير خلالهما كالنائمة مغنطيسيا نظرات ذاهلة . وجه لا ينم عن شىء ..سكون.. صمت .. وعزوف عن الكلام واستسلام تام لما تأتى به الأقدار .

وضعت نفسى فى حالة تأهب كامل لأسوأ ما يمكن أن تأتى به الأيام .. لن أهتز بعد ذلك ولن أجزع ولن تقتلع جذورى من الأساس.. فقد إستوعبت الدرس جيدا .. فلا سلام .. لاسلام مع الحياة .. وأين هو السلام وقد صدمت بثلاث صدمات متتالية .. ثلاثة من أعز الأحباء وأقرب الاقرباء رحلوا على مدى ثلاثة أشهر فقط وتركوا لنا فراغا جاهدت لكى أملأه فلم أستطع .. وبت أنظر حولى أتأمل فى الوجوه أناسا لا يعرفون من الحياة سوى الأنانية والسعى نحو المال والشهرة واغتنام الفرص ـ صور مغايرة تماما

للراحلين الثلاثة بتجردهم وموضوعيتهم الرائعة وعطائهم اللانهائى.

تطورت الأمور معى من أسوأ إلى أسوأ إلى أن قررت الاعتزال.. إعتزال الحياة بكل ما فيها

وقضيت أياما وأياما وأنا وحيدة مع القلم .. أسجل أفكاري وخواطرى السوداء .. فلم يعد أمامى مفر سوى إنتزاع الحياة من بين ضلوعى لولا بقية من إيمان .

وفجاة ظهرت تلك البثرة علي وجهى .. لم أهتم بها في البداية لعلها احدى البثور التى تظهر علي الوجه وسرعان ما تزول .. أو لعلها شامة صغيرة لا تضرنى في شئ .. ولكن ظنوني خابت جميعها عندما وجدت البثرة الصغيرة تكبر وتكبر وتتخذ شكلا قبيحا يصدم كل من يراة .. تذكرت فلسفتى فى الحياة .. تلك التى عشت بها عامين كاملين .. أن بالحياة شرا وقسوة وقبحا لا قبل للأنسان بها .. وأن هذه البثرة يمكن أن تتحول إلى كائن شرس بشع ينهش فى وجهى وجسدى ويحولنى الى حطام .

لم يكن أمامى إلا أن ألجأ إلى الطب والأطباء ..

وللاقدار ألا عيب لا يمكن أن يتخيلها الإنسان .

ألا عيب بها مكر ودعابة واستهزاء بهذا الكائن الذى يتصور أنه يملك الكون .. رغم أن الحياة هى التى توجه حسب الوجهة التى

تريدها بكل نعومة ومكر ودهاء

فتحت سجل الأطباء فى التخصصات المختلفة ..إلى أى التخصصات أذهب ؟ جراحة عامة .. أورام .. أمراض جلدية علاج بالليزر ..؟

لم تطل حيرتى طويلا فسرعان ما وجدت اسمه يصافح وجهى ويستقر أمام عينى ويلتصق بذهنى ويصمد أمامى كالطود لا يتزحزح من مكانه كأنه نداء من القدر لى أن أذهب إليه ..

حزمت أمرى واتصلت بعيادته .. قالوا لى إنه لا يأتى إلا متأخرا » وذهبت إليه .. ذهبت مدفوعة بكلام الناس عنه وعن براعته ومهارته .

ذهبت بنفس روح الاستسلام وتوقع أسوأ الفروض ..

وغاب.. غاب كثيرا عن موعده واكتظت العيادة بالمرضى .. كلهم يسعون وراء الجراحات الدقيقة ذات المهارة العالية التى هى تخصصه ..

وشعرت بالثورة على هذه الاستهانة بوقت الناس .. كيف يكون على هذا القدر من المهارة والبراعة فى مجال تخصصه وهذا القدر من اللامبالة بمشاعر الناس ووقتهم .

همست لزميلتى التى ترافقنى إليه أننى سوف أنصرف ..فكيف

أحترم إنسانا على هذا القدر من الاستهتار بمشاعر هؤلاء الذين تعشموا الخير على يديه فتحملوا كل مشقه فى سبيل الوصول إليه

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشر مساء عندما نهضت وقلت لزميلتى إننى سوف أنصرف ..

فى تلك اللحظة ظهر هو ..ولأول وهلة إستطعت أن أكتشفت الكثير عن شخصيته مجرد نظرة سريعة أكدت لى أنه إنسان غير عادى.

فقد كانت إبتسامة الخجل والشعور بالذنب ترتسم على وجهه وهو يشق طريقه وسط زبائن العيادة يحمل كيسا ورقيا فى يده يبدو أنها مشترياته التى تأخر عن العيادة بسببها .

لم يكن هو دورى فى الدخول إليه عندما استدعانى للدخول عنده.. دهشت لماذا إختارنى للدخول عنده بهذه السرعة ..ربما استشعر ضيق ونفاذ صبرى من طول الانتظار .. ولكن هل أنا وحدى التى نفد صبرها من طول الانتظار !!

عندما دخلت حجرة مكتبة وتفرست فى وجهه جيدا هذه المرة وجدته شابا وسيما نحيلا فى الأربعينات .. وهيئته وتصرفاته تنم عن الذكاء الحاد ..

ابتسم فى وجهى وقال لى إنه يعرفنى من كتاباتى .. دهشت أن

طبيبا أستاذا مشغولا مثله يمكن أن يملك الوقت الذى يقرأ فيه لجميع الكتاب .. لم تطل دهشتى فسرعان ما فتح الكيس الورقى الذى كان يحمله ليخرج لى فى زهو كتابين اشتراهما لتوه من المكتبة أسفل العمارة.

.. كان أحدهما كتابا فى الفلسفة والثانى كتاباً فى علم النفس .. قال لى إنه يعشق القراءة ويسعى وراء الكتب بكل دأب وأصرار.

تطور الحديث بيننا عن الأدب بصفة عامة .. الأدب المجرد حتى من أسماء أصحابه وكذا كان اكتشافى الأول المذهل لهذا الطبيب الشاب الذى تجرد من كل اهتمامات شخصية واحب الأدب للأدب ذاته وليس من أجل الأشخاص أو الأسماء أو من أجل المكاسب والمغانم كما يفعل الكثير من المثقفين وأدباء هذه الأيام.

ورغم قلقى لمعرفة حقيقة البثرة على وجهى ورغبتى فى أن يسرع بالكشف على لكى يطمئنى فقد وجدت نفسى أتابع حديثه بكل شغف .. ياله من انسان مختلف.

شعر بقلقى وتململى رغم إنسياقى وراء حديثه الجذاب هو إنسان طبيعى للغاية .. يتصرف بتلقائية غريبة .. كيف بعد كل هذا التأخير عن مرضاه ينشغل معى بالحديث فى الأدب والفن ويترك

الزبائن ينتظرون.

قام على الفور وأجلسنى على سرير الكشف ونظر إلى البشرة فى وجهى وقال إنها تحتاج لجراحة دقيقة بعدها سوف يزول كل شئ ولكن لابد من تحليل للعينة .

دق قلبى .. ألم أقل لكم إننى أتوقع من الحياة الأسوأ دائما .. تحدد موعد الجراحة .. والى أن يحين موعدها حذرونى من العبث بها أو وضع يدى عليها .. وعلى أن أنساها تماما وسوف يريحنى منها إلى الأبد .

وعندما عدت إلى منزلى فى ذلك اليوم شعرت أن رياحاً جديدة بدأت تهب على حياتى .. نسمة رطبة طازجة مرت فوق صحراء حياتى القاحلة تمنيت له فيها . فى تجرد تام .. كل النجاح .. كل السعادة .. كل الخير ..

وجاء اليوم الموعود .. وذهبت إلى المستشفى . خصصوا لى غرفة ونزعوا عنى ثيابى وألبسونى رداء العمليات الذى يسمونه «جاون » وكذلك غطاء الرأس .. وكانوا يريدون أن يحملونى على التروللى ولكنى ودخلت حجرة العمليات على الأقدام .. لماذا كل هذه التعقيدات لمجرد بثرة على الوجه.

وداخل حجرة العمليات كان هو أيضا يرتدى نفس الملابس ومعه

المساعدون وجاءت حقنة البينج الموضعى .. هل تشعرين بالألم ؟؟ قليلا ، سوف يزول وتشعرين يخدر فى جانب وجهك كله .. وقد حدث .. لم اشعر بشئ بعد ذلك .. الشق فى الوجه .. إزالة البثرة التى كانت فى حقيقتها وبعد التحليل .. مجرد تكاثر جلدى سطحى حميد .. ومع عبثى تحول إلى ذلك الكيان القبيح بالوجه.

خاط الجرح ووضع الضمادات على الوجه .. ابتسم لى وقال إن العملية قد إنتهت وعلى أن استريح قليلا قبل العودة إلى حجرتى.

ظل طوال العملية يتحدث فى الأدب والفلسفة وكان من ضمن الأسئلة التى وجهها لى عن طموحات الإنسان وهل تتوقف عند سن معينة .. ولما كنت فى وضع لايسمح لى بالرد على سؤاله فقد تولى هو الرد .. مؤكدا أن طوحات الإنسان تتطور من مرحلة عمرية إلى مرحلة أخرى لكنها لاتتوقف أبدا ما دام فى الإنسان حياة.

قال لمساعديه إنه يتحدث معى فى مثل هذه الأمور لأننى إنسانه لها فكر ورأى .

وعندما صعدت إلى حجرتى لأستريح كنت أشعر أن هموم الدنيا كلها قد انزاحت عن كاهلى وأننى استطيع من الآن فصاعدا أن أواجه الحياة فى تفاؤل وأمل وأنها ليست بهذا القدر من القسوة والقبح وأن عطاءها المتجدد هو الذى جعلنى أقابل هذا الطبيب

الشاب الفنان العاشق فى محراب الثقافة والعلم والذى تصورت خطأ أن بداخله استهتاراً وعدم مبالاة بمشاعر مرضاه وحقيقة الأمر أنها ثقة زائدة بالنفس من قدرة مبضعه البارع الساحر أن يشفى مرضاه دون تعقيدات أو فذلكه.

ورغم يقينى التام وقناعتى الكاملة أنه لن يحدث بينى وبينه أى لقاء غير ما فات إلا إننى كنت على يقين أيضا أن تلك اللحظات التى التقيت فيها به سوف تبقى دائما نسمة عطرة طازجة تلوح لى وتهفهف حولى كلما داهمنى الشعور باليأس وفقدان الثقة فى الحياة لتجدد الأمل والتفاؤل فى نفسى من أن الحياة تضم بين جنباتها مثل هذا الانسان البديع الرائع .

وعندما مر أسبوع على العملية ونزع عنى الضمادات وأزال الغرز وعدت إلى منزلى ونظرت إلى وجهى فى المرآة فلم أجد أثرا للبشرة عى الوجه بل وجدت أمامى وجهاً رائق البشرة تعلوه ابتسامة التفاؤل .. رفعت سماعة الهاتف وقلت له :أشكرك .

ولم يدر هو على وجه التحديد علام كنت أشكره ..

اليـوم أكـثـر من أى وقت آخر شـعـرت إنهـا تريد أن تسكب مـشـاعـرها على الورق . « أخـاف .. أخـشى .. أرتعـد .. » هكذا خطت على الورق ثم جف القلم .. طوت الورقـة ودسـتـهـا فى درج مكتبها وأغلقتـه بالمفتاح .. هذه مشـاعـر حمـيـمـة لايجب أن يطلع عليها أحد..

جـاء إلى مكتبه متأخرا « فـاتصل بهـا فـور وصـوله .. ردت السكرتيرة الخاصة له .. سألها عنها أعطتها سماعة الهاتف .. طلب منها أن تأتى إليه فى مكتبه لأن هناك بعض خطابات يريد أن يمليها عليها .. ما أشد غرابة هذا الرجل يصر دائما على معاملتها وكأنها سكرتيـرة له رغم أن لديه طاقم سكرتارية كاملا بما فيـهم السكرتيرة الخاصة له .. لماذا يعاملها هذه المعاملة رغم أنها ليست على قوة مكتبه بل هى تعمل مستشارة للشركة منتدبة من عملها بالجامعة.

دخلت حجرة مكتبه وهذه المشاعر تصطخب فى نفسها .. كان هناك زائر بالحجرة بمجرد ان انتهى منه وغادر الحجرة حتى التفت إليها وأعطاها برقيتى فاكس طالبا منها مراجعتهما ثم إعطاءهما لسكرتيرته لإرسالهما .. فلما رأى نظرات الدهشة على وجهها قال

لها ضاحكا ..

** كتبتهما بنفسى .. أردت فقط أن أراك ..

تسمرت مكانها .. أيعنى حقا ما يقول .. أراد أن يراها ؟؟

كيف شعر بمشاعرها .. كيف أحس بثورتها عليه وعلى معاملته لها كمجرد سكرتيرة له وكأنما أراد أن يقول لها :

« لقد أسات الظن بى فأنا لا أحتاج لك كسكرتيرةولا حتى كمستشارة بل كإمراة بجانبى .. وعندما استدعيك إلى مكتبى فلكى أراك .. ».

كانت فكرية تشعر دائما أن هذا هو شعوره الحقيقى نحوها منذ أن انتدبها من عملها الأصلى لتعمل مستشارة بمكتبة ، ولكنها كانت تتعمد أن تخدع نفسها ، لاتريد أن تعترف أبدا بعاطفته نحوها لأنها تخافها .. لاتدرى مداها أو عاقبتها تخاف أن يصعد بها إلى السماء السابعة ثم ينزل بها إلى الأرض دفعة واحدة فتتحطم رأسها .. ما أشد ما تخشاه وتخافه..

قالت له يوما فى بداية عملها معه وهى تراقبه وهو يسير أمور الشركة فى مهارة فائقة ..

ـ ما أمهرك ..

رد عليها باسما فى تواضع ..

- لا تقولى ذلك ..

- هذا ليس رأيى وحدى بل رأى جميع من يعمل بالشركة .

رأت نفسها وهى تقول له ذلك تقترب منه رغما عنها .. نظر اليها مستغربا تراجعت للخلف فى ارتباك وخجل .. ندمت على تسرعها .. ظهر عليها الأسى لماذا تعمد أن يقربها منه ويبعدها فى نفس اللحظة ..

فى نهاية اليوم قال لها وهو يترك زائريه ويتجه نحوها وكان قد اسدعاها مرة اخرى إلى مكتبة .

- أراك غدا مساء ..

ثم استدار واستأنف كلامه مع زائريه ..

سقط فى يدها أين يريد أن يراها ومتى ؟؟

عادت إلى المنزل والذهول يشملها ويشل حركتها . رفعت سماعة التليفون واتصلت بجليلة ابنة خالتها ومستودع أسرارها .. ضحكت جليلة كثيرا ..

- ولماذا لم تسأليه أين ومتى ؟؟

- لم يترك لى فرصة لذلك فاجأنى .. أصابنى الذهول فلم أستطع أن استرسل فى الحديث معه ..

- رئيسك هذا داهيه .. إنه يلعب بعواطفك . لو كان يريد حقا

الارتباط بك لقال لك ذلك فى وضوح وصراحة ..

- وأية فائدة تعود عليه من اللعب بعواطفى فهو يعلم تماما ..

- يعلم أنك إنسانه جادة ليس من السهل اللعب بعواطفك .. لكنها مجرد محاولة كثير من الرجال يهوون هذه اللعبة ..

- لن أترك له الفرصة ..

- أنا معك .. واجهيه فى صراحة ، دعيه يكشف حقيقة نواياه نحوك ..

- كيف ؟؟

- إدعيه إلى فنجان شاى فى أى مكان .. افهميه إننى أنا وزوجى سنكونان معكما فنحن لن نتركك وحدك معه بالطبع ..

- وما الهدف من ذلك ؟؟

- إذا كان يحبك حقا ويرغب فى الارتباط بك فسوف يقبل الدعوة على الفور وإذا كان يريد مجرد التسلية فسوف يهرب من المقابلة .

- ماذا تقولين تريدين منى أن أخذ بزمام المبادرة ؟؟

- يجب أن نتأكد من حقيقة نواياه . تشجعى ونفذى ما اقوله لك..

- الم يأخذ هو زمام المبادرة وطلب أن يراك غداً مساء بقى أن

تتصلى به وتسأليه أين ومتى ولم ؟؟

وضعت فكرية سماعه التليفون وظلت تفكر .. ماذا تفعل .. إنه يريد مواعدتها .. هذا أمر واضح إن لم يكن غدا مساء كما قال لها فسوف يكرر الدعوة هذا مؤكد .. إذا كانت الفرصة قد أفلتت منها هذه المرة فلم تسأله أين ومتى ولم فلن تترك الفرصة تفلت منها بعد ذلك .. يجب أن تعرف حقيقة نواياه نحوها .. أمامها غدا ويوم السبت وفى صبيحة الأحد سوف يسافر للخارج لإنجاز بعض الأمور الخاصة بالشركة ويغيب لمدة أسبوعين أو أكثر سوف تظل خلالها نهبا للحيرة والقلق وبذلك يصدق قول جليلة من إنه يلعب بعواطفها ويستعذب أن يراها فى حالة حيرة وقلق ..

كان قد قال لطاقم مكتبه قبل أن يغادر المكتب يوم الخميس إنه سيأتى إلى المكتب لمدة ساعتين يوم السبت .. وهو عطلة .. سألته فى حيرة ..

ـ هل آتى أنا ايضاً ؟؟

نظر إليها مليا ولم يجب ثم سار في طريقة خارجا من الحجرة ..

قالت لها زميلة كانت تقف على بعد خطوات منها ..

ـ لماذا لاتفهمينها وهى « طايرة » .. قال لك سوف آتى يوم السبت كان يجب أن تبدى استعدادك للحضور أنت ايضا ربما احتاج

لك ..

- ولكنى لست من أعضاء مكتبة أنا مجرد مستشارة للشركة عملى بالشركة غير منتظم ..

- ولكنه كان يوجه الكلام لك ..الم تشعرى بعد أنه يكن معزة خاصة لك منذ أول يوم انتدبك فيه لتعملى معنا هنا بالشركة .

ذهلت فكرية لكلام الزميلة .. هل أصبحت مشاعره نحوها معروفة للجميع .. هكذا .. ؟؟ ولماذا يتعمد أن يكشف عن عواطفه أمام الجميع دون مواربة .. ما قصده ..؟؟

ظلت فكرية بقية اليوم تروح وتجيئ فى المنزل الذى يعيش فيه وحدها بعد رحيل الأم والأب معا .. تطوى الغسيل .. تنظف زجاج النوافذ .. تنسق سريرها .. كانت تود أن تشغل نفسها بأى شيئ يبعدها عن التفكير فيه .. فى كلماته الغامضة .. فى تعمده إثاره حيرتها وقلقها ..

بحثت عن رقم تليفون منزله .. يجب أن تتصل به وتعرف منه ماذا كان يعنى بقوله أراك غدا مساء .. لقد جاء الغد وجاء المساء ويجب أن تراه ..

أدارت قرص التليفون ثم وضعت السماعة مكانها .. أحست بجسدها كله يهتز كأنما أصيبت بالحمى تصبب العرق البارد فبلل

جسدها ..

دق جرس الباب فجأة ارتعدت لمجرد سماعه .. نهضت متثاقله لتفتح الباب كانت جليلة هناك تنظر إليها فى قلق ..

- أردت الإطمئنان عليك .. شعرت من صوتك بمدى اضطرابك..

- تفضلى يا جليلة ..جئت فى وقتك .. أشعر أننى اختنق..

نظرت جليلة حولها ..

- هذا البيت الخالى إلا من الورق والكتب لابد أن يشعرك بالاختناق .. تعالى معى .. سوف نذهب إلى النادى معا .. زوجى هناك وسوف نلحق به ..

بينما أخذت فكرية ترتدى ثيابها ظلت جليلة تثرثر ..

- زوجى يعجبه كثيرا كلامك .. تفهمين كثيرا فى أمور السياسة والأمور العامة ..

الشيئ الذى لا افهم فيه أنا .. يقدر تماما مكانتك العلمية وإن كان يسوءه كثيرا أن يراك وحيده ..

انتهت فكرية من ارتداء ملابسها فى عجل .. كانت تود أن تهرب من جو المنزل .. من القتامة التي تسيطر على كل شيئ فيه.. من وحدتها داخل جدرانه .. من أفكارها . من تلك الإحاسيس المدمرة التى أيقظها هذا الرجل بداخلها فجأة كإمراة ..

لأول مرة فى حياتها تشعر أنها امرأة .. إمرأة يرغبها رجل كأنثى.. رجل تكن له مشاعر متضاربة .. هى مزيج من الاحترام والإنبهار والشعور بالامتنان والانجذاب إليه كرجل .. لأول مرة تشعر أنها تتعامل مع رجل يملك مقومات الرجولة وسحرها ..

بمجرد دخولها النادى لمحته .. نعم كان هو جالسا هناك فى حديقة النادى مع بعض أصدقائه .. لم يكن حلما بل حقيقة .. أهى مصادفة .. أم أن هذا ما كان يقصده بالمقابلة غدا مساء .. ربما يتصور الآن أنها كانت من الذكاء والفطنة بحيث فهمت تلميحاته.. مرة أو مرتين رأته قبل ذلك فى النادى عندما كانت تذهب إليه مع جليلة .. وفى كل مرة كان يتحاشاها ويتجاهل وجودها ..

هذه المرة بمجرد أن رآها نهض على الفور .. مد لها يده مصافحا.. قدمت جليلة اليه وقدمته اليها ثم انضمتا بعد ذلك إلى زوج جليلة الذى كان يجلس على مقربة منه ..

ظل طول الوقت يسدد إليها نظراته .. لم تستطع عيناها أن تفارقا وجهه لحظة .. كان ينفث دخان سيجارته فى تلذذ وهو سابح بأفكاره بعيدا معظم الوقت ثم فجأة يلتفت نحوها ويبتسم .. كانت ثمة موسيقى خافتة نتبعث من مكان لا تعرفه كانت السعادة تغمر وجهه وترفرف حوله ، نسمات ليل القاهرة الصيفية كانت تداعب

وجهه ووجهها .. ورغم بعد المسافة بينهما إلا أنها شعرت أنهما كيانا واحدا ..

« إنه الحب لأول مرة تسلم قيادها له »

حتى ولوكانت مشاعره مجرد لعبة يهواها كما يهواها كثير من الرجال غيره وسواء استمرت هذه العلاقة وأثمرت أو أجهضت فى مهدها ، ورغم إشارات الخطر التى تعلم يقينا أن عقلها الواعى سيظل يرسلها لها ليبعدها عن مواطن الزلل ، فقد شعرت فكرية فى هذه اللحظة أن الحياة معه سوف تصبح أكثر إشراقا وعذوبة فى وقت جفت فيه ينابيع الحب وأجدبت الأرض فلم تعد تثمر سوى الشوك والحجر .

(هذه القصة جاءت فى سياق روايتى « إمرأة بين الرجال » وقد اعتبرتها قصة قصيرة فى حد ذاتها) .

و.خ

(هذه القصة جاءت فى سياق روايتى
« إمرأة بين الرجال » وقد اعتبرتها
قصة قصيرة فى حد ذاتها) .

و.خ

إعتـــزال

أسير بمحاذاة الشاطئ حافية .. أغوص فى الرمال فتترك قدماى آثارهما عليها سرعان ما تمحوها الأمواج .. استعيد ذكرياتى مع ماض مليئ بالأحداث.

إخترت منفاى هنا طواعية ، لم يجبرنى أحد على الاعتزال ، أنا التى اخترت العزلة بعد أن انحسرت عنى الأضواء كممثلة سلاحها فى دنيا الفن هو النضارة والشباب .

كانت نسمات الفجر الوليد تضفى جوا منعشا على الشاطئ وأنا أسير وأسير وأستعرض شريط حياتى .. بعد سنوات من الصخب والضجيج هدأ كل شئ حولى فجأة فلم يعد أحد يطرق على بابى أو يستعين بى فى الأفلام والمسلسلات ، أعرف أن هناك فنانات كبيرات السن تخطين مرحلة الشباب ولا زلن يشاركن بتمثيل أدوار كبيرات السن ، ولكن الشئ الغريب أنه لم يعد لدى الرغبة فى تمثيل هذه الأدوار .. حز فى نفسى أن أمثل دور المطلقة أو الأرملة والعانس كبيرة السن .. كما كرهت الأدوار التقليدية التى تظهرنى كزوجة زال شبابها لكنها تواصل حياتها كأم وجدة لأبناء وأحفاد فتصبح البطولة لجيل الشباب وليس لى ..

وعندما أحاط بى اليأس والإحباط من كل جانب لم يكن أمامى

سوى أن أفعل ما فعلت أخذت فيلا صغيرة باحدى المدن الساحلية المطلة على البحر وأتخذتها مسكنا لى نصف شهور السنة حتى ابتعد عن جميع الذكريات المؤلمة التى تؤرق حياتى ، وهناك حيث نسمات البحر المنعشة وجمال الطبيعة الأخاذ كنت أجلس فى شرفة الفيلا وأنعم بالهدوء والسلام حولى .. ولكن نفسى لم تكن تشاطر الطبيعة حولى سلامها وهدوءها فكنت أشكو من الاضطراب الذهنى والقلق وكثرة المخاوف ليل ونهار بسبب الوحدة والعزلة عن الناس ..صممت على الصمود والمقاومة .. إتصلت بالصديقات القدامى وزميلات المهنة السابقات ممن كنت أتوسم فيهن بعض التعاطف معى فى محنتى ودعوتهم للإقامة بعض الوقت معى بالفيلا .. جنة الله فى أرضه التى دفعت فيها تحويشة العمر والتى تصورت أن فيها الخلاص من محنتى ..

نوع من المصلحة المشتركة التى أعرف أنها قد أصبحت دستور الحياة .. يشاركننى وحدتى مقابل الاستمتاع بهذا الجو الرائع البديع وبجيمع وسائل الترفيه والتسلية التى وفرتها لهن .

أخذت أعد الأيام حتى يأتين .. كنت أتجول فى حجرات الفيلا.. أعدها وأنسقها لاستقبالهن .. كنت على يقين إنهن سوف يلبين الدعوة .. فمن ذا الذى يرفض مصيفا بمثل هذه الروعة الجمال .

لدهشتى وفزعى وجدت الأيام تمر بى ولا أحد يلبى دعوتى .. لم ألق سوى الإعتذارات .. والإعتذار تلو الإعتذار .. حتى بلغت يوما ثلاثة إعتذارات فى اليوم الواحد .. وعرفت أن هذه المصلحة المشتركة البسيطة بعيدة عن دائرة اهتامهن .

هكذا ظلت الأيام تمر بى فى رتابة مؤلمه وما من أحد يسأل عنى أويطرق بابى ، إنفض عنى الجميع ..

أطل أحيانا من شرفة الفيلا المطله على البحر فأجد عجائز الأجانب .. رجالا ونساء بملابس البحر يستمتعون برياضة السباحة والتعرض لأشعة الشمس .. لم يتواروا خجلا من الناس لأن مظاهر الشيخوخة قد زحفت على وجوههم وأجسادهم .

وأتذكر هؤلاء الذين تركتهم خلفى بالعاصمة وقد إنحسرت الأضواء من حولهم مثلى لكنهم لم تعتزلوا الحياة بل لا زالوا يجاهدون لكى يجدوا لأنفسهم دور فيها .. ولكن لن افعل مثل هؤلاء أو هؤلاء .. بل أوثر الإعتزال فأنا لن آخذ حقا ليس حقى وآخذ زمنى وزمنى غيرى كما يقولون فى الأمثال .

ليس أمامى من سبيل إلا أن اكتب لكم هذه الاعترافات لأعبر لكم عما أشعر به من وحدة وألم وخذلان الناس لى .. ووعودهم الكاذبة لى ومحاولاتهم للتظاهر بالتعاطف معى كل هذا مجرد

كلام .. هراء .. هراء..

وهكذا لم يأت أحد .. ولم يشاركنى أحد وحدتى .. بل زادوا آلامى بالتظاهر الكاذب بالتعاطف معى .. يا ليتهم يكفون عن الكلام .

لماذا تعشمت كثيرا فى الناس .. ولماذا تصورت أنه فى هذا المكان الساحر البديع يمكن أن نلتقى كأصدقاء بعيدا عن المصالح والمكاسب والصفقات.

وفى لحظة صفاء ذهن طالما تمنيتها ومضت فى ذهنى فكرة كشفت أمامى حقيقة الأشياء فلم يتخلَّ عنى الناس فقط لأنه لم تعد لهم مصلحة مشتركة معى . ولم يبتعدوا عنى لأننى إتخذت قرارى بالإعتزال والبعد عن الأضواء فى الوقت المناسب وهم لازالوا يلهثون ويحومون كالفراشات حول الأضواء لإلتقاط الفتات.

لكنهم خذلونى لأننى لازلت مستمرة فى المقاومة ولم استسلم للهزيمة والإنهيار وأننى إخترت منفاى هذا بكل شموخ وكبرياء . فى هذا المكان الساحر الآخاذ فانبروا يشهرون فى وجهى أسلحتهم .. التخلى .. النبذ .. التجاهل .. الإهمال ..

قالوا لى دون ان ينبسوا ببنت كلمة :

« لقد انتهى عمرك الإفتراضى سواء فى الفن أو فى الحياة

فلماذا التشبث بالحياة »..

كانت الشمس قد أوشكت على الغيب وأنا لا زلت أسير وأسير بمحاذاة الشاطى أستريح أحيانا بالجلوس على الرمال ثم أعاود السير مرة أخرى .. ولما وجدت برودة الجو تلامس وجهى وجسدى فتسرى القشعريرة فى أوصالى عدت إلى شرفة الفيلا لأجلس على مقعدى أراقب الشمس فى الأفق البعيد وهى تسقط فى مياه البحر الذى بدأ لونه يميل إلى السواد بعد أن غابت عنه أشعة الشمس .. وهكذا ظللت بمقعدى تداعب نسمات البحر وجهى وشعرى وجسدى حتى غلبنى النعاس ..

- أأنت المهندس الذى صمم هذه العمارة ؟!

أطرق فى خجل وقال :

- هو أنا وأشرقت ايضا على تنفيذها .

- إنها رائعة ..

- أشكرك .

- ذوقك رفيع وأسعارك معتدلة.

- تعلمت أن أصنع أجمل الأشياء بأقل التكاليف .

- أنت تبيع الذوق الراقى إذا ..

أطرق خجلا أيضا هذه المرة ولم يجب ..

كان أول ما جذبنى للعمارة .. مظهرها من الخارج والزهور الرائعة تتدلى من شرفاتهاوالأنوار الخافتة تنير واجهتها فتضفى على الشارع الهادئ الذى تقع فيه جمالاً .. وهدوءا .. ورومانسية بديعة ما شاهدت مثلها ..

لم أكن أتصور وقتها بعد أن وقعت فى غرام العمارة أننى سوف أقع فى غرام مالك العمارة أيضا بل المنطقة كلها ..

ففى الساحل الشمالى الغربى من مدينة الإسكندرية وعلى بعد حوالى عشرين كيلو مترا من المدينة إذا كنت مسافراً بالطريق

الصحراوى توجد ضاحية جميلة هادئة يطلق عليها اسم «بيانكى» تابعة لمدنية العجمى الشهيرة بالإسكندرية .

كانت فى الأصل منطقة صحراوية .. جبلية متاخمة للبحر ثم تحولت تدريجيا إلى تلك الضاحية الراقية التى يعشقها الأجانب المتمصرون ومن تبعهم من الأسر المصرية الثرية العريقة اشترت الأرض فى ذلك الوقت بأسعار زهيدة من واضعى اليد من البدو «سكان المنطقة الأصليون » .. الذين اعتبروا أن تجارة بيع الأراضى كنز هبط عليهم من السماء.

وقام المشترون الوافدون إلى المنطقة بعد ذلك ببناء الفيلات والقصور التى أحاطوها بالحدائق الشاسعة والأسوار العالية وأتخدوها مصيفا لهم خلال شهور الصيف وأحيانا خلال اشهر الشتاء الدافئة.

الغريب فى الأمر أن هؤلاء الوافدين إلى المنطقة لاقوا ترحيبا كبيرا من السكان الأصليين من البدو الرحل الذين طبعوا على الاستفادة من هؤلاء الوافدين .. فبعد أن باعوا لهم الأرض التى حصلوا عليها بوضع اليد جلبوا لهم « الدبش » الأبيض لبناء الفيلات والقصور وقاموا على حراستها .. وعن طريق الحراسة هيمنوا على المنطقة مرة أخرى وأصبحوا أسيادهم .

المهم فى الأمر أن أهالى المنطقة من البدو تطبعوا بطابع الأجانب والأسر الثرية .. وكان من أبرز ذلك تعودهم أن يروا بنات وشبان هذه الأسر يسيرون فى الشوارع الوعرة الضيقة لا تستر اجسادهم سوى ملابس البحر الكاشفة .. وكان إذا سولت نفس بعض الشبان مضايقة هؤلاء فيتصدون لهم ويعملون على طردهم خارج المنطقة.

وهكذا امتزجت البداوة بالحضر بشكل مدهش .. وفى هذه المنطقة التى تحمل عبق التاريخ بين جنباتها قابلته .. ذلك الشاب البدوى ذا العيون اللامعة نبذ الجلباب الذى يرتديه أهله وعشيرته وارتدى الملابس الإفرنجية ودخل الجامعة وتخرج منها مهندسا يعمل فى مجال بناء وتشييد العقارات وبيعها .. تجارة تدر عليه ربحا وفيرا مواصلا بذلك الطريق الذى سار فيه أهله عندما جلبوا الحجارة للوافدين الأثرياء لبناء فيلاتهم وقصورهم .. الفارق بينه وبينهم أنه هو الذى كان يقوم علي تصميم وبناء تلك العقارات ..

ولم يكن يبنى القصور والفيلات بل العمارات التى بدأت تنتشر فى المنطقة .

وكنت أنا وقد سحرتنى المنطقة بهدوئها وجمالها قد عقدت العزم على شراء شقة بإحدى هذه العمارات بعد أن زاد الإقبال على السكن بالمنطقة .. وتوقفت عند هذه العمارة بالذات .. ومن هنا

جاء اللقاء بينى وبين مهندس العمارة والقائم على تنفيذها .

قال ونحن نوقع العقد بلهجة ناعمة ساحرة وهو ينظر إلى بعيونه اللامعة :

ـ لن تكون علاقتنا مجرد علاقة بائع بمشتر .. لا..

صح ما قاله .. فعندما طلبت منه إجراء بعض التعديلات بالشقة وذهبت إليها فى اليوم التالى لأخذ مقاسات الحجرات استعدادا لتأثيثها وجدته هناك على رأس فريق عمل يجرون التعديلات التى طلبتها .. كان كالقائد وسط جنوده .. يأمرهم فيطيعون وهم يبدون نحوه آيات التبجيل والاحترام والطاعة .

عجبت لسرعته فى تنفيذ ما طلبته منه واعتبرت ذلك نوعا من الذكاء الاجتماعى فى التعامل مع المشترين من شأنه أن يرفع أسهمه بينهم .. ولكن لسبب لا أدريه ظلت عباراته تتردد فى سمعى :

ـ لن تكون علاقتنا مجرد علاقة بائع بمشتر .. لا ..

وتعددت طلباتى منه وتكررت سرعته فى تنفيذ ما أردت ..

وبعد أن إطمأننت إلى أن الشقة اصبحت صالحه للسكنى اغلقت بابها وحملت المفتاح معى إلى القاهرة فقد كنا فى أواخر شهور الصيف والمصطافون قد بدأوا فى هجرة المنطقة بعد أن تسللت

نسمات الخريف الباردة إلى أجسادهم .

ساعتها أحسست بأن نفسى قد بدأت تمتلئ بالسعادة لأول مرة منذ شهور طويله .

بعد عدة أيام من مغادرتى للإسكندرية دق جرس التليفون بمنزلى بالقاهرة حيث أعيش بمفردى وقبل أن أرفع السماعة عرفت أنه هو من رقم تليفونه الذى ظهر على شاشة هاتفى.

دهشت على اتصاله بى بالقاهرة ولكنه أخبرنى أنه أراد أن يطمئننى أنه قد تم تركيب عداد النور بالشقة وبذلك تم توصيل الكهرباء إليها وكنت قد أعطيت توكيلاً لأحد معاونيه بذلك.

بعد ذلك تعودت سماع صوته عبر الهاتف بمنزلى بالقاهرة.

وفى كل مرة كان يتذرع بالأسباب والحجج لاتصاله بى فى أمور تخص الشقة .. من هنا بدأت أشعر بالفعل بأن العلاقة بيننا لايمكن أن تكون أبداً مجرد علاقة بائع بمشتر .. وسرحت فى خواطرى .. هل يعرف قلبى الحب مرة أخرى بعد أن هجرنى الحبيب وتركنى فى حالة انهيار كامل ؟ .. هل يكون هذا البدوى الأسمر سبباً فى عودة الثقة فى نفسى وفى الحياة مرة ثانية ؟؟

فرغم اختلاف جذروه عن جذورى وبعده عن وسطى وبيئتى .. شعرت بأنه إنسان راق متحضر .. فنان ..

أفلتت منى عبارة طائشة وهويكرر سؤاله فى كل مرة كان يتصل فيها بى بالقاهرة « متى آتى إلى الاسكندرية ؟؟ ان الجو الآن فيها رائع ».

قلت له :

ـ لماذا لا تأتى إلى القاهرة ؟!

لماذا أفلتت منى تلك العبارة الطائشة التى تؤكد استجابتى لعواطفه ورغبة واضحة فى التواصل معه .. وقد فهم هو هذه العبارة واستوعبها جيداً .

وفى جلسة هادئة جمعت بينى وبينه بأحد المطاعم الشهيرة بالمنطقة بعد أن أصر على دعوتى احتفالا بالانتهاء من تجهيز الشقة .. قال لى إنه عندما يقوم بتصميم وبناء إحدى العمارات يشعر بأنها أصبحت جزءا منه .. مثل الفنان التشكيلى مع لوحته أو الشاعر مع قصيدته وأنه عندما يبيع شققها يشعر بأنه فقد شيئاً عزيزا عليه .. ولذلك يحرص على عقد أواصر الصداقة ولو مع مالك واحد لإحدى الشقق حتى لايقطع علاقته بالعمارة ويكون ذلك سببا لتردده عليها دون حرج :

ـ أيكون هذا هو سبب العلاقة بيننا !!

ـ لا .. أنت شئ مختلف ..

ظللنا بعد ذلك .. وطوال الأسبوعين اللذين قضيتهما بالاسكندرية نتقابل يوميا فى أماكن عامة متفرقة .. كان يقول لى:

ـ كم أود لو أسند رأسى على كتفك لأستريح من همومى ومشاكلى .

ـ لا استطيع فراقك .. ليتك تظلين هنا الى الأبد .

ـ انت الحبيبة التى انتظرتها دائما بصراحتك وعفويتك وذوقك الراقى المتميز وفى يوم قال لى :

ـ هل تعرفين أننى استفدت كثيرا من الملاحظات التى أبديتها على شقتك وأننى أجريت التعدلات نفسها التى طلبتها على الشقق الأخرى بالعمارة ولاقت استحسانا كبيرا ممن تقدموا لشرائها !! ـ يا ليتك تمديننى دائما بنصائحك المستمدة من ذوقك الراقى فأنا أحتاج لمثل هذه النصائح لأقدم لزبائنى البضاعة التى يريدونها ..

شعرت بشئ بداخلى يستيقظ فجأة عند سماع عبارات مثل :

ـ استفدت كثيراً

ـ لأقدم لزبائنى البضاعة التى يريدونها ..

شعرت بأنه يحسب كل شئ بحساب الاستفادة والمصلحة ..

أيكون هذا هو ما ربط بيننا !! تذكرت ما رووه لى عن أهل المنطقة من السكان الاصلين .. وجذروه منهم .. من أنهم لم يلفظوا الوافدين بل استفادوا منهم وفرضوا سيطرتهم عليهم . . أيكون هو مثلهم ؟!!

لكن رغم ذلك .. ورغم الهواجس التى بدأت تنتابنى عن حقيقة ما يربطه بى .. فقد كنت عندما أبيت فى الشقة أشعر بسعادة غامرة وكأنى أتظلل بحمايته .. وتذكرت أن هذا ما يقدمه أهل المنطقة للسكان الوافدين .. الشعور بالدفء والحماية والأمان .. فليكن .. فأنا احتاج لهذه الأشياء وأنا فتاة وحيدة أعيش بمفردى وأحتاج لهذا الدفء وتلك الحماية .

ظللت بعد ذلك أياماً سعيدة بصحبته .. نتقابل خارج المنطقة فى أماكن عامة وأغترف من ينابيع حبه وحنانه كأرض جوفاء غمرتها المياه فبدأت ترتوى بعد طول ظمأ.

ولكن حدث بعد ذلك ما قلب الامور رأسا على عقب .. فقد نزلت يوما لشراء بعض الاشياء من السوبر ماركت الشهير بالمنطقة.. هناك قابلتها .. ومن بعدها انقلبت حياتى إلى جحيم لايحتمل .

كانت شابة صغيرة لاتزيد سنها على عشرين عاماً .. يؤكد

مظهرها أنها تنتمى إلى أسرة طيبة من أثرياء المنطقة ..

قدمت نفسها لى قائلة :

- أنا نيفين جارتك فى العمارة المقابلة . ألست أنت التى اشتريت مؤخرا شقة فى عمارة المهندس .. الذى يملك عمارتنا أيضا!!

- أنا هى ..

- لا تتأثرى كثيرا بمعسول كلامه .. لاتصدقى كل ما يقوله لك.. إنه يفعل ذلك مع كل ساكنة تسكن إحدي شقق عماراته المتعددة .. ولقد فعل ذلك معى أنا ..

- تقصدين أنه زئير نساء ؟!

- لاأقصد ذلك تماما .. ولكنه لشدة رغبته فى الارتقاء إلى مستوى حضارى يقربه من سكان المنطقة ومالكى عماراته من أهل الحضر لايستطيع أن يفرق بين رغبته فى الارتقاء والتحضر وبين عواطفه ..

ارتعد جسمى واهتزت أطرافى وتذكرت تلك العبارات التى كان يقولها لى عن مدى استفادته منى ومن ذوقى الراقى ..

أكملت هى :

- لقد كنت أنا السابقة وأنت اللاحقة .. لقد تركنى من أجلك

وغدا سوف يتركك أنت أيضا من أجل فتاة أخرى من سكان إحدى شققه تستطيع أن تعطيه من ذوقها وصلاتها وخبرتها ما يمكن أن يرتقى به إلى مستوى أعلى وأعلى .. فطموحه لاحدود له .. قالت لى ذلك ثم استدارت لاستكمال شراء باقى احتياجاتها وبقيت أنا واقفة صامته ذاهلة ..

فكرت كثيرا بعد أن عدت إلى شقتى ..شئ بداخلى يؤكد صدق ما قالته .. لابد أن اهجره أنا قبل ان يهجرنى فأنا لا أستطيع أن اتحمل المزيد من الطعنات وكفانى طعنة الحبيب الذى هجرنى .. وهكذا أتخذت قرارى .

إن من يمر الآن من أمام العمارة لتى بها شقتى يجد لافتة مكتوبا عليها عبارة « للبيع » معلقة على شرفتها وسط الزهور التى تتدلى منها وكأنها شاهد على قبر حب عاش ومات فى لحظات عابرة من الزمن ..

وفى الأتوبيس الصحراوى الذى أقلنى فى طريق عودتى للقاهرة كانت الدموع تنساب من عينى حارة ساخنة بعد أن قطعت بذلك كل علاقة لى به..

لكن ظل بداخلى حنين جارف إلى استمرار التواصل مع ذلك البدوى الساحر ذى العيون اللامعة..

أرجوك لاتحمل همي

دق جرس الهاتف فى أرجاء المنزل فأحدث دويا مزعجا ..أسرع هو ليلتقط السماعة قبل أن يسبقة إليها أحد . صرخت هى فيه . هذه المرأة الأخرى .. ألا زالت ملتصقة بك .. لاتريد أن تتركك وترحل عنا.

لم يجب .. تردد الصوت النسائى مرة أخرى على الطرف الآخر من الخط وهى تحاول الاتصال به عبر الهاتف ليرد فى عصبية :

ـ من المتكلم :

وضعت السماعة مكانها وغرقت فى التفكير .. هل كان صوتها بالفعل .. صوت الزوجة أم صوتها هى يأتى إليها مخترقا حواجز الزمن ليذكرها بما مضى ،لكم رددتها على مسمع من زوجها .. سنوات،سنوات وهى تردد هذا السؤال :

ـ ألا تزال هذه المرأة في حياتك ؟؟

إنه صوتها .. هى الزوجة السابقة وهذا الحب الجديد الذى لاح لها ويصور لها الآن ما يمكن أن يحدث من تداعيات مؤلمة لو أنها استجابت له وضربت عرض الحائط بكل القيم والمبادئ التى حرصت عليها طوال حياتها وقبلت أن تربط حياتها بهذا الوافد الجديد على حياتها وهو رجل متزوج ورب أسرة.

اختلط الواقع بالخيال والحلم بالحقيقة لكن الواقع فرض وجوده وتمركز أمامها .. هى زوجة سابقة لرجل كانت فى حياته امرأة أخرى غيرها .

وها هى الآن على وشك الدخول فى حب جديد لرجل آخر فى حياته أمرأة غيرها أيضا .. لكنها هذه المرة زوجته .. معنى ذلك أن يتبادلا الأدوار .. فهى مرة الزوجة المعترف بها وتارة أخرى المرأة المقتحمة لحياة رجل متزوج والتى سوف يكتب عليها أن تعيش فى الخفاء غير معتروف بها لو استجابت لعواطفه وقبلت أن ترتبط به. كتب عليها ألا يكون الرجل فى حياتها كلا خالصا لها . بل لابد أن تكون فى حياته امرأة أخرى غيرها .

لكم تعذبت وهى ترى زوجها مرتبطا بامرأة أخرى لسنوات طويلة تزيد على العشرين عاما ..وهذه المرأة الآن .. زوجة هذا الذى لاح حبه أمامها . هل يطاوعها قلبها أن تسبب لها من الآلام .. ماعانت هى منه هذه السنين الطويلة .

تعرف أن المشاعر الانسانية لامنطق ولاعقل لها .

ما أقسى مشاعر الحرمان التى عانتها مع زوجها .. ليس بسبب المرأة الأخرى فى حياته فقط . لكن لأسباب أخرى عديدة .. ومع كل مشاعر العذاب التى عاشتها معه فهى لم تتخل عنه بل ظلت

ملتصقه به حتى أخر لحظة من عمره .. عندما قال لها الأطباء بالمستشفى « عودى إلى منزلك . فلا أمل » .

انتهت أيام العذاب . عذابه وعذابها . بعد مرض طويل مذل مهين .. انتهت فصول الرواية التى عاشتها معه وأسدل الستار على حياة طويلة كاملة حافلة بالمحن .

ومن بعده عاشت فى وحدة موحشة .. مرعبة .. تحملتها صابرة.. مؤمنة بقضاء الله وقدره .

لم تتصور يوما أن ما حدث لها فى حياتها سوف يتكرر مرة أخرى لكن بصورة معاكسة تشعر أنه يكن لها عاطفة صادقة وإنها هى أيضا تكن له نفس العاطفة . لكنها تصارع حتى لاتستسلم لها.. وإنه ما زال لديها العقل والضمير لكى تقول له.

- لابد أن نفترق ويذهب كل منا إلى حال سبيلة.

لاتريد له أن يتعذب ولا أن تتعذب امرأته معه . أما هى فقد تعودت على العذاب طوال حياتها .. شئ واحد تطلبه منه وتلح فى طلبه وهى تعلم مدى حنانه ورقته ألا يحمل همها وتكفيه مسئوليته وهمومه .

لاتريد له أن يعيش ممزقا بين امرأتين فهى تعرف كم هو شخصية معتزة باستقلالها .. روح طليقة تهفو إلى الانطلاق وتكره القيد ..

فما بالك إذا كان مكبلا بامرأتين .

لم يساورها مرة واحدة شعور الأنانية .. أن تفكر فى نفسها .. فى السعادة التى خاصمتها طوال حياتها والتى مدت إليها يدها أخيراً بكل سخاء . وهى الآن تضحى بها من أجله ..

بل فكرت فيه هو فى امرأته الممزقة بحبه .. لديها قدرة هائلة على تحمل الآلم .. لكن ما لا تتحمله مطلقا أن ترى أحدا يتألم بسببها .

لهذا تركت له رسالة قصيرة قالت له فيها :

إنها سوف تنسحب من حياته فى هدوء ودون ضجة ويكفيها تلك الأيام الرائعة التى عاشاها معا يتبادلان مشاعر الحب والحنان والتفاهم عبر الهاتف .. أيام قصار قصار فى عمر الزمن .. لكنها لن تنمحى أبدا من ذاكرتها بل ستظل تحتمى وتتدثر بها ما تبقى لها من سنوات عمرها .

الاقتراب من اللهب

كانت أمى تحذرنى دائما وأنا طفلة من مغبة اللعب بالنار أو الأقتراب من اللهب .. كانت تصور الأمور على نحو مرعب إذا ما أمسكت النار بملابسى وامتدت إلى أنحاء جسمى وتحولت إلى مجرد قطعة من اللحم المحترق المتفحم فى غضون لحظة من الزمن وكأنى لم أكن .. منذ ذلك اليوم أصبحت أخاف النار وابتعد عن اللهب .. لكنى مع الأيام تكشف لى أن هناك لهبا آخر مختلفا .

حبك نار .. قربك نار.

نار ياحبيبى نار ..

هكذا إستمعت إلى عبدالحليم حافظ فى طفولتى وبواكير شبابى وعرفت الصلة بين الحب والنار واستوعبتها جيدا .. لكن أبدا ..لم أنفر من الحب أو أرهبه . بل غرقت فيه بكل مشاعرى وكتمت العاطفة فى صدرى ولم أبح بها إلى أحد .. فقد أحببت الحب نفسه ولم أحب شخصا بعينه .. كان ذلك فى سنوات شبابى المبكر .وفى يوم قريب جلست أستمع إلى مغن شاب ظهر مؤخرا فألهب العواطف بعد أن أعاد للرومانسية بهاءها وسحرها ..

أمتلأ صدرى بالعواطف الملتهبة والأحاسيس الدافئة إثر استماعى لأغانية الساحرة . كيف تكون هذه المشاعر الرقيقة

الناعمة مثل النار واللهب .. كتمت أحاسيسى فى صدرى كعادتى وسرت فى طريقى أحمل عواطفى وأبحث فى الوجوه حولى عمن يمكن أن يتعاطف معى ويبادلنى العاطفة دون أن تمسنى النار فاحترق . مرت أمام مخيلتى صور الرجال حولى أستعرضهم واحدا واحد ..

هذا متزوج وغارق فى حب زوجته .. حبى له سوف يحرقنى تماما. لا اقتراب .. لا مشاركة .

وهذا الشاب كانت لى معه تجربة حب من طرف واحد اكتشفت على أثرها أنه يفضل امرأة تملك رصيدا من المال يمكن أن يوفر له الحياة المرفهة التى يريدها ولاتهمه العاطفة .. استبعدته .

حملت عواطفى وظللت أبحث وأبحث وأنا ألهث من التعب .. هذا الرجل المراوغ الى يدنو منى أحيانا وينأى وكأنى لعبة فى يدية.. عذبنى كثيرا بصده وهجرانه لى بلا سبب أخرجته من قائمة الرجال الذين يمكننى أن أضع حمولة عواطفى بين يديهم وأنا مطمئنة .. فأنا لا أحب المراوغة فمنها تنبعث النار ويشتعل اللهب..

سرت فى طريقى أتفرس فى الوجوه أمامى .. لعل وعسى .. ملامح الوجه فى اعتقادى تنبئ عن الشخصية دائما .

لم أجد سوى وجوه متجهمة أفقدتها الهموم النضارة والحيوية ..

وجوه متعبة ونفوس كليلة .. الحب بالنسبة لها ترف لا تتحمله .

زادت النار اشتعالاً فى نفسى عند استماعى إلى حفل عام تحييه مطربة أخرى صاعدة طرحت مشكلة حبها للحبيب الذى هجرها أمام جمهور مستمعيها وجعلت منهم الشاهد والحكم .. كانت تجهش بالبكاء وهى تغنى وتدعو من الله أن يعود لها حبيبها بينما الدموع تنساب من عيون مستمعيها .. جنازة حارة لحبيب ذهب ولم يعد ..

أصبحت كقطع الجمر اشتعالا من كثرة ما استوعبت من عواطف ولاتواصل بينى وبين حبيب يفهمنى ويشاطرنى مشاعرى .

هل أصبح الحب يا ربى سجينا داخل أغانى الحفلات العامة وأفلام الفيديو كليب وأغانى الديسكوتيك .. وسيلة تدر على أصحابها الملايين ويصدقها من كانوا يحلمون بالحب مثلى ويأملون فى الاقتراب من لهيبه دون ما خوف أو وجل لكن لاوجود له فى الحقيقة.

عرجت فى سيرى خلال رحلة البحث على أحد الأحياء المتواضعة .. وجدت الناس يجلسون على أبواب المنازل يتلمسون النسمات العليلة فى صيف حار رطب كانوا يتسامرون ويحتسون الشاى والسعادة ترفرف حولهم.

كانت خطواتى قد أصبحت ثقيلة متعبة .. جلست على مقعد خشبى بجوارهم أستمع .. لا لم يكن حباً ولا كانت السعادة تحيط بهم .. كان الذى جمعهم مجرد ثرثرة وخوض فى سير الناس وانتقاد لاذع لسلوك بعض معارفهم وأصدقائهم . مشاعر الحقد والحسد كانت تنطلق من أفواههم .. نهضت على الفور وكلى خيبة أمل .

وجدت أمامى صندوقاً كبيراً للقمامة .. اقتربت منه وقد أتخذت قرارى فألقيت بحملى بداخله وسرت إلى حال سبيلى غير نادمة .

لكنى ما كدت أبعد خطوات عن المكان حتى أبصرت مشهدا هزنى وأزال الغمامة من أمامى فجأة .. فإذ بى أبصر وأرى ما لم أره من قبل ولا أبصرته .. مجموعة من الأطفال الجياع العراة تهجم على الصندوق لتبحث فيه عن كسرة خبز تقيم أودها .. ويا للحسرة عندما وجدوه خالياً إلا من لفائف الحب وأسمال العاطفة التى سكبتها فيه وقد ظنوا أنها طعام زاد عن حاجتى ..

هموا بالابتعاد عن الصندوق فى خيبة أمل لكنى كنت أسرع إليه منهم ضممتهم إلى صدرى وكأنى وجدت فيهم ضالتى .. فتحت حقيبة يدي ووضعت فى كف كل منهم بعض النقود الورقية.. ارتاحت عضلات الوجوه الصغيرة العابسة وانفرجت اساريرها فكشفت عن ضحكات طفولية مرحة مجلجلة ..

شكرونى وانصرفوا الى حال سبيلهم . . سرت فى طريقى وانا اشعر بالتفاول والامل .

كان هناك شاب يقف على ناحية الطريق يتأمل ما يحدث .. اقترب منى باسما .. مد لى يده قائلاً :

مرحبا بك ..

دهشت .. فلم تكن بيننا سابق معرفة .. سألته عن اسمه ..

قال : لايهم الاسم فأنا لم اسألك عن اسمك لكن مع ذلك أشعر أننى أعرفك جيداً قلت له مستنكرة :

وأنا أليس من حقى أن أعرفك كما عرفتنى ؟؟

طلب منى أن أسير وراءه وسوف أعرف ما أود معرفته ..

امتثلت لأوامره طائعة ..

سرنا طويلا طويلا حتى أبصرنا أمامنا بوابة ضخمة تحيط بها الخضرة من كل جانب ..

هل تدخلين معى ؟؟

تفرست فى معالم وجهه .. عرفت أنه هو الذى كنت أبحث عنه دون فائدة .. وجدتنى أضع يدى فى يده وندخل من البوابة معاً .

كان المكان مليئا بالأطفال فى عمر الزهور .. لهم وجوه نضرة باسمة ما أن رأوه حتى أحاطوا به فى حب جارف ..

بابا .. بابا

هكذا كانوا ينادونه .. عرفت أنه المشرف على هذه الدار الكبيرة.

منذ ذلك اليوم أصبحت كالمسحورة به .. أأتمر بأمره وأنفذ مشيئه وأعاونه فى عمله وعرفت أن هناك لهباً لايشتعل وناراً لاتحرق.

واقربت منه أكثر وأكثر ..

الصمت

أغلقت فمي .. لزمت الصمت لم أعد أسمع صوتي .. استرحت.. كم من المشاكل سببها لي هذا الصوت .. وأولها مشكلة البوح .. ثم كلام كثير يحمل رأيي في الأخرين كان سبب إزعاج لهم .. الآن لزمت الصمت .. أسمع صوت الآخرين حولي فلا أعبأ به .. فهو خارج عني غير ملتصق بي أنا غير مسئولة عنه.

لم يعد أحد يعرف مكنون قلبي .. انغلقت على نفسي .. رسمت على شفتي إبتسامة باهتة لاتعبر عن شئ .. مهما حاول الآخرون أن يعرفوا ما بداخلي فلن يفلحوا فسوف تقف لهم هذه الإبتسامة بالمرصاد لتضع سدا منيعا بيني وبينهم .

أشعر أنني أصبحت خفيفة خفيفة كالطير .. سلمت من أذى نفسي وسلم الآخرون من أذاي ولم يعد هناك خطاب بيني وبين أحد غير بارئي فهو أدرى بما في داخلي ، فالبارئ سبحانه وتعالى لايأخذ بظاهر القول .. لكن بباطنه أيضا وهو وحده الذي يعرف ما تخفي وما نبطن فإليه وحده اتجه .

لو لم اترك العنان لتدفق الكلمات مني لما حدث بيني وبينه ما حدث ولما ندمت كل هذا الندم الذي أشعر به الآن.

كان يلعب معي لعبة الصمت .. هو الذي بدأ .. حاولت كثيرا

أن أعرف ما بداخله فلم أفلح .. وكنت أعرف أن هناك الكثير بداخله .. يرفض أن يطلعنى عليه .. غضبت وثرت لصمته .. كيف يكون بيننا كل هذا الحب وهناك أشياء لا أعرفها عنه .. أفهم أن الحب مصارحة .. كيف ينغلق على نفسه هكذا .. بكل ما أوتيت من قوة وثورة على أوضاع خطأ حاولت أن أهزه .. أحركه .. لكن لافائدة كان مستمعا جيدا لى فحكيت وحكيت واسترسلت..كشفت الغطاء عنى ففضفضت وأصبحت كالكتاب المفتوح أمامه فكشف أسرارى كلها . عرف رأيى فى صمته .. فيه كله وفى غيره ..

واجه ثورتى بالمزيد من الصمت .. وكلما ازداد صمتا ازددت أنا ثورة وغضبا .. أصبحت إنسانة شرسة أمام سكوته وصمته .. وأصبح هو الهادئ الصامت المتزن الذى لايخطئ ، الآن تعلمت الدرس جيداً فلم أعد أبوح ولا أتكلم .. بعدت عن الخطأ ، مثلث الدور نفسه الذى لعبه معى .. الآن ألعبه مع غيرى .. شامخة أنا الآن بسكوتى وصمتى وتمنعى .. وليتكلم الآخرون كما شاءوا فلن يعرفوا أبدا فيما أفكر الآن عرفت قواعد اللعبة فالصمت يشجع الآخرين على البوح . ولقد تكلمت هى وباحت لى بكل ما تحس وتشعر وتنتوى .. وعرفت منها أن الحياة الآن غير التى عرفتها معه ..

عرفت أن الحياة الآن كلها زخرف وبهرجة وتطلع إلى الثراء الفاحش الذى كانت تسعى إليه هى بكل قوة .. أنا لا ألومها فهى تعيش زمانها .. وأنا ما زلت أعيش فى زمن مضى .

كانت العواطف والأحاسيس هى التى تغلف علاقتى به .. فلم يكن للمادة أى دخل بيننا.

عشت حياتى أعانى فى سبيل لاشئ .. أصبحت كالكتاب المفتوح أمامه .. لم يعد فىّ ما يثيره .. ضاع العمر بسبب خطأ لم أدركه.. أن الحب صناعة لها قواعدها وأصولها ليس مجرد عواطف هوجاء لاضابط لها ... فالنساء يصطنعن كل شئ .. بداية من المكياج وتصفيف الشعر والكلام الموزون المنمق .. لم أكن أنا أفعل ذلك .. تصورت خطأ أن الحب وحده يكفى لإقامة علاقة بينى وبينه .. أخطأت . ودفعت ثمن خطأى فادحا .. ضاع العمر وأنا أتوهم أشياء لا وجود لها .

تصورت خطأ أن الحياة يمكن أن تسير دون الحاجة إلى المادة .. فاخترته هو دون غيره .. كان لايملك المادة لكنى توهمت وجود العاطفة .. لم اصطنع .. لكن هو الذى اصطنع .. وعشت ألهث وراء كلمة حب منه كنت أحاول أن انتزعها منه دون فائدة .

خسرت المادة والعاطفة معا .. ومع ذلك تحملت ..إذا كان

لايملك المادة فالرزق على الله .. لن نموت جوعا ولن نتسول .. عشنا على الكفاف وتحملت فى سبيل كلمة حب منه ضن على بها ولم يستجب لتوسلاتى .. أبداً لم يستجب .. قلت وأنا اطمئن نفسى:

يكفينى حنانه ورقته .. حدبه علىّ دون كلمة . كان هذا اصطناعا وتمثيلاً أجاده وأتقنه ولم أدركه إلا مؤخرا عندما أطل شبح الخيانة برأسه فى حياتنا اشتممته عن بعد .. عرفت أن فى حياته امرأة غيرى ..صارحته بالأمر .. سألته عنها .. توسلت .. لكنه أبدا لم ينبس ببنت كلمة عنها .. لزم الصمت.

وكان فى صمته هو الأقوى وأنا الأضعف .. هو الشامخ وأنا التى أتسول.

انتهت علاقتى به دون أن أعرف عنها شيئا .. لأنه أبداً لم يتكلم .. الأن جاء دورى فى الصمت .. ليس صمتا .. لكنه عزوف عن كل شئ .. وأولها تجربة الحب .. فلن أعيد المأساة مرة أخرى مع أحد غيره مهما حدث فأنا أعرف تماما أننى سأكون أنا الخاسرة هذه المرة أيضا لأننى فى الحب أنسى حذرى وأشى بأشياء وأتكلم واسترسل وأضعف .

صمتى هو عزوف ورفض لكل شئ .. ليس هذا زمنى .. فالمال

أصبح الآن هو سيد الموقف واصطناع الأشياء هو أداة الوصول إليه .. وأنا لا أعرف الصنعة ولا أجيد سوى الصراحة والعفوية التي أصبحت الآن مرادفة للسذاجة والبلاهة .

ليس هذا زمني .. وأمام زمن لايفسح لي ذراعيه وليس لي فيه مكان .. لا أجد أمامي سوى الصمت مهما حاول الآخرون حثي على الكلام .. على المشاركة .

فلم أتكلم ولن أشارك ..

أشـراقة أمـل

ألم يسأل عنى أحد ؟؟

الرد دائما يكون بابتسامة باهتة وإشاحة من الوجه والتبرم من السؤال

لالم يسأل أحد ..

جميعهم مشغولون بأمورهم - هى فقط التى تعيش فى فراغ .. ماذا بعد سن الستين - بعد الإحالة على المعاش - ماذا بعد أن نشأت أجيال أخرى أمسكت بزمام الأمور وأزاحتها جانبا هى وكل جيلها.. ماذا بعد أن تقطعت سبل الاتصال مع الآخرين .. لاشئ .. محاولات فاشلة لشغل أوقات الفراغ .. نهم وشغف شديدان بتقديم الخدمات للآخرين لعل وعسى أن تعود وشائج العلاقات بينها وبينهم لكن لافائدة .. جميعهم يأخذون ولايعطون إبتسامات صفراء تقابلها فى كل مكان . نظرات الرثاء فى العيون ..إلى متى تستطيع الصمود والصحة فى النازل كما يقولون ..

ربما اتصلوا بك لكن الأولاد لايقولون لك أو ينسون ..

ربما

لماذا لاتضعين جهاز تسجيل على جهاز التليفون فتسجل لك مكالمات من يسألون عنك فى غيابك لاتعتمدى على ذاكرة الأولاد.

عملت بالنصيحة.. طلبت إدخال خاصية إظهار رقم الطالب على جهاز التليفون الخاص بها جاءتها مكالمات كثيرة لم تتعرف فى معظمها على من يكون الطالب ..

انشغلت بهذه الهواية الجديدة .. التفكير فيمن يكون الطالب ..

استطاعت أن تتعرف على واحد أو اثنين أما الباقون فربما يكونونه قد أخطأوا الرقم أو أنهم أصدقاء لابنها وزوجته وأحفادها وكلهم يعيشون معا فى شقة واحدة ..

كتبت لهم الأرقام لعلهم يتعرفون عليها .. أشاحوا بوجوههم .. لايهم من طلبونا فسوف يطلبوننا مرة أخرى لو كان هناك أمر هام .. لماذا هى وحدها التى تهتم بمن يسأل ومن لم يسأل

- الفراغ يا أمى الذى تعيشين فيه .. حاولى أن تشغلى وقت فراغك بشيئ مفيد ..

- عشت طول عمرى .. أهتم بعملى وبك أنت وأخوتك ..

- لكن هذا الأمر قد انتهى لقد أصبح لكل منا حياته وأسرته .. إحمدى الله أننى أنا وأسرتى نعيش معك ونبدد وحدتك ..

- أنت مشغول بهم وليس لى مكان بينكم ..

- والأحفاد لماذا لاتشاركينا فى رعايتهم وتوجيههم ..

- زوجتك ترعاهم أفضل رعاية ولا أحب أن أفرض نفسى عليها

أو أتدخل فى أمور تربيتها لأبنائها .. فى العمل قالوا لها لسنا بحاجة لك لنجدد لك مدة خدمتك وهى تعلم جيدا أن هناك مجموعة من المحظوظين المقربين لمن بيدهم الأمر فى العمل يكونون فيما بينهم ما يشبه (الجيتو) اليهودى يسيطرون على كل مجالات العمل ويتفاهمون فيما بينهم بلغة الرشاوى والإتاوات التى لاتجيدها .

فى العمل التطوعى لاقت من صنوف الإحباط والعذاب ما لا يخطر على بال .. سرقوا جهودها وأفكارها ونسبوها لأنفسهم بخسوا أشياءها .. لم يقدروا جهودها حق قدره بما قدمته من عطاء لهم بل حاربوها بضراوة وانحطاط..

الاكتئاب يحاصرها من كل جانب .. الكآبة تفرض وجودها على حياتها .. فجأة تذكرته .. زميلها السابق فى العمل .. هذا الذى ظل يحاصرها ويطاردها بحبه وغرامه أعواماً وأعواماً لكنها أبدا لم تستجب لمحاولاته رغم ترملها وهى فى سن الخامسة والثلاثين .. لم تره منذ سنوات .. كان قد أعطاها رقم هاتفه عند خروجها على المعاش لكنها لم تتصل به وهو أيضا لم يتصل بها ..

الحب يهزم الموت .. التواصل مع الحبيب يهزم الاكتئاب ..

انتهزت فرصة خلو المنزل إلا منها رفعت سماعة الهاتف ..

سمعت صوته يرن فى سمعها واضحا جليا مزغردا ..

* أخيرا استجبت لحبى واعجابى بك ..

* بعد أن تعديت الستين ..

* لايهم فأنت سوف تظلين فى نظرى تلك الشابة الجميلة شديدة الرقة والحساسية كما كنت دائما ..

تعددت اللقاءات بينهما وكان خلال تلك اللقاءات يبدو شابا ينبض بالحياة كعادته أما هى فلم تدرى كيف رآها .. تعابير وجهه لم تكشف عن مشاعره إلى أن جاء يوم أمسك فيه بيدها فى حنان وهما جالسان فى أحد المقاهى المطلة على النيل وهمس لها..

*ماذا بعد اللقاء فى الأماكن العامة ؟؟ لنا ثلاثة شهور ونحن على هذا الحال .

* ألا يكفى هذه الصداقة الرائعة بيننا .. تفاهمنا على جميع الاشياء .. سؤال كل منا على الآخر .. وجودك فى حياتى ووجودى فى حياتك ..

* نتقابل فى مكان هادئ بعيدا عن أعين الفضوليين .. مكان أستطيع أن أعبر لك فيه بحرية عن مدى حبى وعشقى لك وساعتها سوف تندمين على كل لحظة قضيناها نتحدث دون تلامس الأجساد أو دفء العناق ..

* لم يكن هذا اتفاقنا من البداية ..

* ماذا تعنين ؟؟

* اعنى أن العناق هو عناق الفكرة الواحدة حين تتلاقى بين اثنين .. عناق الروح بالروح والعاطفة بالعاطفة .. كل ذلك أشعر به وأنامعك ..

* أنت خيالية رومانسية وأنا أكره الخيال وليس ما هو أشد مقتا إلى قلبى من الرومانسية البلهاء ..

* أنت قاسٍ جارح إلى أبعد الحدود ..

لم تتصور أن كلماتها هذه سوف تغضبه إلى هذا الحد فقد اربد وجهه وارتسمت فى عينيه نظرة سخرية وإشفاق وخيبة أمل .. أضافت ..

* لا أنا ولا أنت فى السن الذى يسمح بمثل هذه العلاقة الحسية التى تتحدث عنها ، لنترك هذا للشباب ولنظل مجرد أصدقاء عقلاء يحنو كل منا على الآخر ويغمره بحبه ودفئ عواطفه..

انصرف دون أن يلقى عليها مجرد السلام بحجة أن عنده موعداً هاماً كاد أن ينساه وتركها وحيدة تحدق فى الظلام وقد تحول لون النيل أمامها إلى سواد ..

عادت إلى المنزل تجر أذيال الفشل تهدل وجهها وانتفخت الجفون

.. كبرت مرة واحدة مالايقل عن عشر سنوات ..

لماذا لوح لها بالأمل ثم اختفى .. لماذا صور لها بكلماته الرقيقة العذبة أن ما يجذبه نحوها هو عاطفة الحب واذ به ينحى بالموضوع منحى آخر تماما .. أهذا هو الحب فى نظره .. مجرد علاقة تلامس وعناق ..

لماذا خاضت أصلا هذه التجربة المريرة وعرضت نفسها لموقف مهين مثل هذا .. ألم يكن من الأكرم لها أن تظل تعانى من مرارة الوحدة وكآبة الواقع بدلا من الهوان ..

نظرة الاستخفاف والاشفاق على وجهه وهو يجمع علبة سجائره وسلسلة مفاتيحه ويلوذ بالفرار .. مشهد لن تنساه مدى حياتها .. لماذا ؟؟ وهى فى هذه السن تقع فى حبائل مثل هذا الرجل الذى يطلب منها أمرا مثل هذا لايمكن لسيدة محترمة أن تقبله هى التى رفضته على مدى السنوات الماضية عندما كانت لاتزال فى ريعان شبابها ..

لاتريد أن تصدق أن كل مشاعره نحوها .. كل حنانه ورقته كانت مجرد دعوة إلى اللقاء فى مكان هادئ يستطيع فيه على حد قوله (أن يعبر لها فيه عن مدى حبه وعشقه لها) لا .. لابد أن هناك خطأ ما .. لايمكن أن يكون ما حدث مجرد تمثيل متقن من

جانبه مجرد خداع لكى يصل إلى غايته لو كانت قد طاوعته وانزلقت معه فى علاقة مثل هذه ..

لايمكن أن تكون هذه هى النهاية لعلاقة صداقة رائعة دامت أكثر من ثلاثة أشهر كاملة .. كيف ينتهى كل شئ بينهما هكذا .. وكيف يضحى بمثل هذه العلاقة الرائعة التى ربما لاتتكرر فى عمر الإنسان أكثر من مرة واحدة ..

ولكن لماذا لاتقطع الشك باليقين .. لماذا لاتحاول الاتصال به مرة أخرى لاستيضاح الأمر ..

رفعت سماعة الهاتف طلبته كما تعودت أن تفعل .. كان دائما يرد عليها بصوته الدافئ الحنون بمجرد أن يلمح رقم هاتفها مسجلا أمامه على شاشة محموله ، هذه المرة ظل جرس الهاتف يرن فى أذنيها رنينا متواصلا ولا مجيب ، ثم فجأة سكن الصوت بعد أن امتدت يده لإغلاق الخط ..

ماذا بيدها أن تفعل وهذه الإهانة الجديدة تكاد تعصف بها وتزلزل كيانها ..

لاشيئ .. لاشيئ

كيف تصورت أنه فى هذا الزمن الردئ يمكن أن تقوم صداقة منزهة عن الأغراض بين رجل وامرأة وقد شمل العطب والفساد كل

شئ .. كل شئ ..

عاد الاكتئاب يحاصرها من كل جانب .. فرضت الكآبة وجودها على حياتها مرة أخرى ، وزاد عليها هذا الشعور الجديد بالمهانة والخجل والندم ..

دق جرس الباب .. نادتها الشغالة ..

* هناك من يطلبك على الباب يا مدام .. لقد أتى بالأمس ولم تكونى موجودة بالمنزل فانصرف ..

على الفور ارتسمت على وجهها إشراقة أمل .. لابد أنه هو .. جاء لكى يعتذر لها عما بدر منه من أساءة ولم يجد وسيلة للتعبير عن أسفه إلا بالحضور بنفسه أو ربما أنه يمر بأزمة ما ويريد منها المساعدة ..

اندفعت نحو الباب فى لهفة واشتياق ..

كان واقفا أمامها بثيابه الرثة وشعره المشعث والابتسامة الخجول مرتسمة على وجهه البائس .

ـ كناس الشارع يا مدام .. كل سنة وانت طيبة ..

فتحت كيس نقودها فى عصبية لتخرج له كل ما فيه من نقود..

ـ اكنس الشارع كويس .. الزبالة زادت أوى اليومين دول وبقيت فى كل مكان ..

إصلاح وانشرح

عندما رزق عباس الأشول وزوجته محبات الأعور بمولودتهما البكرية أسموها إصلاح - ومن بعدها جاءت انشراح - والعلة أو السبب الذى دفع أسرة الأشول لاختيار هذه الأسماء لبناتها التى قد تبدو غريبة بعض الشئ على آذان أهل هذا الزمن أن الأب عباس الأشول كان شديد الاقتناع أن للأسماء تاثيراً كبيراً على تكوين الشخصية ولهذا يجب أن يتم اختيارها بعناية فائقة بدليل أن والده الحاج الأشول ظل طوال حياته - بتأثير اسمه - يفضل الكتابة بيده اليسرى بدلا من اليمنى وكذلك الأمر بالنسبة لزوجته محبات الأعور - فرغم أنها ولدت بعينين سليمتين إلا أنه مع مرور الزمن آخذت عينها اليسرى تضعف شيئا فشيئا حتى بات يخشى عليها من ان تضيع تماما فتصبح اسما على مسمى وبذلك يتأكد لدى زوجها عباس بما لايدع مجالا للشك أنه كان محقا فى قناعته عن مدى تأثير الأسماء .. على الشخصيات ولذلك كان على يقين من أنه بتسميه ابنته إصلاح سوف تنشأ إنسانه صالحة - لهذا حرص على تعليمها الفرائض كلها من صلاة إلى زكاة إلى صوم وحج إن شاء إلى بيت الله الحرام عند ميسرة . لذلك نشأت إصلاح فتاة فاضلة - جادة ترنو دائما إلى إصلاح إحوالها بالعلم والمعرفة ومكارم

الأخلاق شيئ واحد كان يعيب شخصيتها انها كانت شديدة التجهم ـ عابسة الوجه . وهو شئ يحدث أحيانا بالنسبة لمن يتخذ الصلاح سبيلا فى الحياة .. لذلك عندما جاءت ابنتهما الثانية بعد خمسة عشر عاما من عدم الإنجاب وكانت ابنته البكرية إصلاح قد بلغت الخامسة عشر من عمرها وأصبح واضحا لكل ذى عينين أن الانشراح والتفاؤل والسعادة لن يعرفوا طريقهم إليها عند ذلك صمم الأب عباس إلى تسمية أبنته الثانية انشراح . ولقد صدق حدس الأب فمنذ أن جاءت انشراح إلى الحياة والابتسامة لاتفارق شفتيها ـ ومع تطورها فى مراحل النمو أصبحت ضحكاتها البرئية تجلجل فى إنحاء المنزل بسبب وبغير سبب .. كانت تحب الغناء وتعشق الرقص وخاصة الرقص الحديث القائم على الحركة السريعة والإيقاع الصاخب والقطاعات السريعة المتلاحقة عند التصوير أو ما يسمى بالفيديو كليب ـ كانت شديدة المتابعة لبرامج الفيديو كليب التى يعرضها التليفزيون فى الحاح حتى ادمنت تلك البرامج .

كانت شخصية انشراح مدعاة لإعجاب الجيران وأهل الحى فاحبوها جميعا ـ بل أن بنات الحى كلهن كن يقلدنا فى حركاتها وضحكاتها واصبحن جميعا مثلها يرتدين الملابس التى تكشف أكثر مما تغطى وخاصة عند منطقة البطن .

الغريب فى الأمر أن الابنة إصلاح التى أصبحت الآن فى الثلاثين

من عمرها ولم تتزوج بعد ـأصبحت إصلاح لاتعنى فقط بإصلاح نفسها بل امتدت يدها لاصلاح أحوال المنزل ونظافته وترتيبه فكانت طوال اليوم تعكف على تنظيف الحجرات وتجميع المهملات وترتيب الأشياء بحيث أصبح هناك نظام صارم داخل المنزل بقيادتها، صحيح أن أهل المنزل كانوا يضيقون بعض الشئ بحزمها وصرامتها وأوامرها المحددة وخاصة انشراح وكثيرا ما تعاركتا حول أسلوب منهما فى الحياة ، ألا أن إصلاح كانت تردد دائماً أنا اتبع الحق ولا اقبل فى ذلك لومة لائم فالحق بين الباطل وبين ومادمت اتبع ما يمليه على ضميرى وشخصيتى فلن آبه لأى اعتراض ثم تضيف ربما لو كنت أخذ حقا غير حقى أو لو كنت آخذ غير حقى أو لو كنت أستفيد استفادة شخصية من سوء النظام أو الفوضى مثل انشراح التى لاتطيق كلمة نظام لو كنت مثلها ربما كنت سأتصرف بطريقة مختلفة .

زاد تشدد إصلاح وصرامتها داخل المنزل بحيث أصبح آية فى النظام والنظافة وعدم التسبب وأصبح يُضرب به المثل فى الحى كله..

.. أما أنشراح فكانت دائمة الضحك والابتسام والغناء والرقص فى مواجهة أى موقف حتى وان لم يستدع مثل هذا الضحك والرقص والغناء .

أمتد نشاط إصلاح خارج نطاق المنزل ليشمل الحى كله ليمتد خارج نطاق الحى إلى مناحى أخرى من الحياة تشمل المجتمع كله فكانت إذا قرأت فى الصحف مثلا عن سيطرة إحدى عصابات الاتجار فى المخدرات على إحدى مدن وجه قبلى ودخول هذه العصابة فى معركة مع البوليس تبادل فيها إطلاق النيران من الجانبين ارجعت إصلاح هذا إلى التسبب ـ فلو أن هناك صرامة فى تطبيق القوانين لما حدث ذلك ولو كان المسئولون قد أتبعوا ما تتبعه هى فى إصلاح أحوال المنزل لما حدث ذلك ـ أما انشراح فكانت ضحكتها تجلجل فى أنحاء المنزل وهى تتابع ما تفعله شقيقتها إصلاح من إرسال خطابات وفاكسات للمسئولين فى الدولة تلفت نظرهم إلى أوجه التسبب والفساد داخل المجتمع وكانت تتهكم عليها قائلة :

ـ تريدين إصلاح الكون يا إصلاح !!

تقول ذلك ثم تدير المسجل على أشرطة الغناء الحديث وتغيب فى حمى الرقص والغناء والتمايل العنيف .

عندما كانت إصلاح ترى الدكاكين والمحال تضع السلاسل والبراميل أمام أبوابها لمنع راكبى السيارات من ركن سياراتهم وترى فوضى المرور وعدم إتباع الجمهور لقواعد السلوك والآداب كات تثور ثورة عارمة حتى أنه حدث فى إحدى المرات أن جذبت عسكرى المرور من يده وكان يقف مرتبكا والمرور حوله يضج

بالفوضى والتسيب - جذبته من يده لكى يحرر محضرا للمخالفين ولكنه خلص ذراعه من قبضتها القوية وعاد إلى موقفه فيما يسمى « تنظيم حركة المرور » فى ذلك اليوم سارت إصلاح فى الشوارع تصرخ فى المارة الذين تركوا الأرصفة ونزلوا إلى عرض الشارع وفى السيارات التى علت أبواقها - ظلت تصرخ وتصرخ ولا أحد يعبأ بصراخها وإذ بالأرض تميد بها وتشعر بالدوار وتكاد تقع على الأرض فغشيا عليها لولا وجود شقيقتها انشراح على مقربة منها وكانت تقف بالمصادفة أمام محل لبيع أشرطة التسجيل الغنائية تسأل عن شريط جديد نزل الأسواق - لولا وجود انشراح التى أخذتها من يدها لتعود بها إلى المنزل ربما كان قد حدث لها ما لا يحمد عقباه.

ظلت انشراح وهى تقود أختها نحو منزلهما تحذرها من مغبة ما تفعل مؤكدة أنها لو عادت مرة أخرى إلى ارتكاب هذه الأفعال الشاذة فسوف يقودونها حتما إلى مستشفى الأمراض العقلية لإيداعها فيها لأجل غير مسمى ولكن ذلك لم يثن اصلاح عن عزمها فى اصلاح الأمور مهما كان الثمن فكانت تثور وتعترض وترسل الخطابات والفاكسات إلى الصحف والمجلات ، عندما كانت ترى الشباب لايلتزمون بكلمتهم ولابالمواعيد ويسخرون من الكبار - أما إذا قادتها قدماها إلى إحدى المصالح الحكومية المتعاملة مع

الجمهور فسوء المعاملة يفوق كل تصور انسانى .

كانت ثورتها تبلغ القمة عندما ترى الحقوق تضيع والممتلكات تغتصب ولا أحد يحرك ساكنا ـ أما ما تناهى إليها عبر الصحف من أخبار عن إدخال السماد الفاسد والألبان المشعة إلى البلاد رغم أنف القانون وتمر بجوار مستشفى الأطفال فتتحسر آلما على مئات الأطفال المصابين بالسرطان وهم يواجهون بشاعة المرض فى هذه السن المبكرة بينما المسئولون يتسولون لهم المعونة لاستكمال علاجهم ـ وهم المذنبون .

كل هذه الأشياء كانت تثير غضبها وتدفعها إلى الشكوى عبر الجرائد والمجلات ومخاطبة المسئولين مؤكدة لهم أن الفساد الذى استشرى فى البلاد سوف يؤدى حتما إلى الانهيار ـ ولا سميع ولامجيب ..

أما أشد ما أثار حفيظتها فكان عندما تنامى إلى علمها أن أحد رؤساء المدن الجديدة قد دمر تمثالين نادرين اهداهما وزير الثقافة إلى المدينة الجديدة لكى تضعهما عند مدخل المدينة لتجميل وجهها عندما عرفت أن رئيس المدينة هذا تصرف استجابة لبعض الغوغانيين من سكان المدينة ـ الذين اعتبروا هذه التماثيل تنتمى لفئة الأصنام عندما عرفت ذلك سعت على الفور لتكوين جمعية للمحافظة على القطع الفنية والآثار المصرية خشية أن تزحف مظاهر

الغوغانية على كل مظاهر الأصالة والتحضر فى البلاد فيمحون تاريخهما ويدمرون ماضيها إعلاء لشأن التخلف والانحطاط مثلما حدث فى بعض البلاد وكان ذريعه للتدخل الأجنبى بل والاحتلال.

فغرت انشراح فاها فى دهشة وانزعاج وهى ترى شقيقتها إصلاح تدعو الأصدقاء والصديقات إلى الانضمام إلىّ هذه الجمعية وصممت على إبلاغ الأب الذى قابل الموضوع كله فى هدوء واتزان وقال :

ـ بدلا من الضحك والرقص والغناء افعلى مثلما تفعل أختك إصلاح وأعملى على اصلاح ما حولك .

ـ ولكن هذه مهمة المسئولين يا أبى وليست مهمتنا .

ـ فى معظم الأحوال لايفعل الإنسان شيئا إلا إذا كان فى ذلك مصلحة له ـ وربما من يدرى تكون هناك مصلحة للبعض فى هذا التسيب والفوضى ـ أما نحن أفراد الشعب فيجب أن نكون تصرفاتنا بعيدة عن كل شبه مصلحة شخصية ـ أن نكون مثل أختك إصلاح .. إصلاحيون ..

لم يكمل الأب حيث أمطرته انشراح بوابل من الضحك الهستيرى والرقص والغناء وصرخات الأب تلاحقها .

ـ كفى عن الضحك يا انشراح فلم بعد الموقف يتحمل الضحك.. نحن فى موقف خطير ولامكان فيه للانشراحيون مثلك يا انشراح .

ظلت إصلاح تعمل فى اصلاح الأمور حولها وظلت انشراح تضحك وتضحك إلى أن حدث ما كان متوقعا فقد تردد فى الصحف والمجلات وكل وسائل الإعلام المحلية والعالمية أن المسئولين قد وافقوا على ما عرضته عليهم بعض الدول الأجنبية من استقدام خبير أجنبى من أجل اصلاح أحوال البلاد.

فى بداية الأمر لم تفهم انشراح مغزى هذا التصرف ولم تنزعج له مثلما أنزعج أهل المنزل ولكن كانت المفاجأة أن هذا الخبير قد أصبح يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة ملقيا أوامره على الجميع فى صرامة وغطرسة واستعلاء ـ عندئذ بهتت وانزوت متكورة على نفسها وهمست من بين دموعها !

ـ اصلاح عن طريق الغريب !!

المدهش فى الأمر أن أنشراح قد شملها تغيير كبير بعد ذلك فكانت تبكى بدلا من الضحك وتنوح بدلا من الغناء وتهتز الما بدلا من الرقص كلما رأت إصلاحا يفرضه هذا الغريب لا لأنها تكره الإصلاح ولا الغرباء ولكن حزنا على ما فات عندما كانت شقيقتها إصلاح تعمل على اصلاح ما حولها فكانت تقابل تصرفاتها بالضحك والاستهزاء ألم تكن اصلاح أولى من الغريب ..

صور كثيرة على الحائط

عندما دخلت منزلها لأول مرة جذبتنى تلك الصور الكثيرة المعلقة على الحائط .

صورة لامرأة وقور فى الستينات من عمرها تجمع شعرها الغزير الأسود - الذى خطه الشيب - إلى الوراء فى « شينيون » وترتدى قرطا ذهبيا بسيطا فى أذنيها وايشارب بسيطاً لفته حول رقبتها فى أناقة ظاهرة قالت لى صاحبتى عندما رأتنى أحدق فى الصورة أنها لخالتها طنط توحيدة التى كانت تعمل ناظرة لمدرسة التفوق الثانوية - وكانت من أوائل بنات العائلة اللاتى عملن بالتدريس.

تجولت بناظرى بين الصور الأخرى - هذه الدكتورة نبيلة ذات الشعر الأسود المقصوص الناعم والنظارة الطبية الأنيقة على عينيها .. إنها أبنه عمها - التى كانت من أوائل من عمل بالصحافة وأنها تعيش بشقة بوسط البلد بعد وفاة زوجها تجمع فيها صديقاتها مرة كل أول شهر ليتناقشن فى أمور الثقافة والفكر وأنها هى صديقتى - كثيرا ما كانت تغشى هذه المجالس وتستمع إلى ما يدور فيها من مناقشات ثرية مفيدة صور كثيرة معلقة على الحائط عند صديقتى التى دخلت منزلها لأول مرة شدنى منها نموذج ثالث لشابه فى الثلاثينات - حلوة - أنيقة يطل الذكاء من عينيها .

قالت لى صديقتى ان اسمها « جليلة » صديقتها الأثيرة التى رحلت فى ريعان شبابها بعد قصة حب دامية كان بطلها شابا وسيما من أسرة طيبة .. أحبها وكانت زوجة لكهل فى السبعين من عمره - وعندما علم باعجاب هذا الشاب بها قتله - أطلق عليه الرصاص ثم قتل نفسه . فقد كان يكن لها حبا جنونيا ..

دهشت ان يقدم كهل على القتل ثم الانتحار فهذه أمور فى الغالب تخص الشباب.

قالت لى صديقتى تعليقا على ملاحظتى أنه كان مريضا بمرض عضال وانه بعد أن قتل غريمه بدافع الغيرة عزت عليه نفسه أن يساق إلى السجن وهو مريض يلفظ أنفاسه الأخيرة هناك فانتحر ..

صورة أخرى تجمع بين صديقتى فى طفولتها هى وأشقاؤها فى نفس المرحلة العمرية تحتضنهم سيدة وديعة ممتلئة بعض الشئ ترتدى فستانا أنيقا يغطى ساقيها وقد عقدت شعرها إلى الوراء هى الاخرى واشرق وجهها بابتسامة هادئة - قالت لى صديقتى عنها إنها جدتها لأمها رحمها الله التى احتضنتهم فى طفولتهم وعاشت معهم فى منزل واحد وكانت تحمل مسئولية البيت كله لأن والدتها كانت تعمل مهندسه بشركة للبترول وتقضى معظم الوقت فى عملها.

جلست لاستريح بعد أن تجولت فى انحاء المنزل وتعرفت على

إفراد العائلة وصحباتها ـ عندئذ قفز سؤال الى ذهنى .

ـ انت تنتمين يا صديقتى الى عائلة مستنيرة معظم نسائها يعملن ويمارسن الحياة بحلوها ومرها ولكنك تعلقين صورهن على الحائط فى براويز قديمه وكأنهن تركه من تركات الماضى . .

تنهدت صديقتى وغشيت وجهها سحابة من الحزن وقالت :

ـ لانهن كذلك بالفعل ـ تركة من تركات الماضى الجميل الذى لم يعد له مكان بيننا ـ فقد كن مثل أعلى للثقافة والاصرار والكفاح وأيضا الاناقة والاحتشام ولكن خذى فتيات اليوم ـ خذى بناتى مثلا انهن لايعملن ويتسمن باللامبالاة والاستهتار بكل شئ حتى انهن لايحفلن بوضع صورأقاربهن فى البراويز أو تعليقها على الحائط بل يحشرن جميع الصور التذكارية فى كيس نايلون ويزججن به فى أحد البلاكارات مع مجموعة من الكراكيب والمهملات فلا نراهم ولايراهم أحد .

ابتسمت وتذكرت ما يفعله أبنائى أنا بصورى وصور العائلة وأنها تلقى نفس المصير حتى أن شقيقتى قالت يوما فى أسى .

ـ سوف أمزق كل صورى وصور من أحبهم قبل أن أموت حتى لايمزقهم أحد غيرى ويلقون بهم فى سلة المهملات .

انبرت إحدى بناتى قائلة وهى تلتهم ساندوتش فى يدها فى

نهم..

ـ لقد سمعت بعض الأراء التى تقول إن تصوير الشخوص كفر وحرام سواء كانت صوراً فوتوغرافية أو بريشه فنان .

لم اعبا بأن أرد عليها تعودت منها مثل هذه الفتاوى والأحكام التى لاأعرف على وجه الدقة من أين تأتى بها أردفت هى .

ـ كيف يموت الشخص ويصبح ترابا ثم نراه يطل علينا مرة أخرى من خلال صورته ..

ـ ربما كان فى إبراز صورته ورواية سيرته ما يمكن أن يكون عبرة وعظه للأجيال ..

لم أقل لها ذلك بل همست به لنفسى وأنا أسير فى الشارع متجهه إلى منزلى حيث رأيت عشرات من الفتيات يسرن فى جماعات لايميزهن شئ ـ يثرثرن فى لاشئ وسألت نفسى ـ هل يمكن تعليق صورة أى منهن فى برواز على الحائط .. وماذا تقول عنهن ـ نساء غير مميزات نساء سوف ينساهن التاريخ لأنهن يرفضن التميز يسرن وراء القطيع . ضحكت صديقتى عندما ذهبت لزيارتها مرة أخرى ورأتنى أمعن النظر مرة أخرى فى الصور الكثيرة المعلقة على الحائط..

ـ هل تريدين أن تعرفى مصيرهن وما آل إليه حالهن الآن ؟؟

تنبهت على الفور أنه لابد أن تكون قد مرت سنوات على التقاط هذه الصور ولابد أن الحال قد تغير بهم كثيرا الآن .. أجبت على الفور ..

ـ يا ليتك تأخذينني لزيارة من لازلن منهن على قيد الحياة .

فى اليوم التالى كنا نطرق الباب على الاستاذة توحيدة ناظرة مدرسة التفوق الثانوية للبنات سابقا ..

رأيت امرأة عجوز مهدمة ترتدى روبا ثقيلا وتضع على رأسها شالا صوفيا ـ حيت صديقتى فى لهفه واشتياق

ـ لماذا لاتاتين لزيارتى يا ابتسام .. الست شقيقة والدتك أم لأننى أصبحت امرأة عجوز لم يعد أحد يعبأ بى . حتى أولادى .. لم يكن هذا هو الحال فى زماننا ـ كان الصغير يسأل على الكبير.. لكن تغير كل شئ الآن .

تلعثمت صديقتى وقدمتنى إليها ..

ـ صديقتى مايسه يا طنط توحيدة .. رأت صورتك معلقه على الحائط عندنا بالمنزل ..

لمعت الدموع فى عينى استاذة توحيدة

ـ كانت أيام .

ابتدرتها بسؤالى :

ـ هل توقف نشاطك الآن يا استاذه ؟؟ اقصد بعد خروجك على المعاش ؟؟

ـ لا لم اتوقف عند تلك المرحلة ـ بل واصلت نشـــاطى فى الجمعيات الخيرية .

ولكن الآن كيف أخرج للشارع وهذا الزحام ـ وتسكع العاطلين ومضايقاتهم لى كيف اتحمل مخالفات المرور وأصوات أبواق السيارات ومشاجرات الصبية والباعة الجائلين .. أنا أفضل أن أبقى حبيسه المنزل أجتر مرارة الوحدة والإهمال عن هذا الهوان ..

ظللت لأيام وصورتها لاتبرح مخيلتى ـ أهذا ما يؤول إليه حال الإنسان بعد طول مكايدة مع الحياة .

أردت أن أرى نبيلة الصحفية المشهورة فى زمانها ـ تصورت انى سوف أراها بين شلة من الصديقات يتحدثن ويتنافسن فى أحدث الكتب كعادتها ولكننا رأينا الشقة مظلمة ورايناها فى ركن من حجرة النوم يبدو عليها الشحوب والهزال وهى تعد حقيبة ملابسها للذهاب للإقامة لدى إبنتها بعد أن تعرضت لوعكة صحية تعذر معها بقاؤها وحدها بالمنزل الفسيح ـ كان المنزل كئيبا موحشا ونحن نتجول فيه وصورها وهى فى قمة شبابها وجمالها وتألقها تزين

المكان وكانت حجرة المائدة تحمل أثار مأدبه يبدو أنها كانت قد أقامتها منذ أيام قليلة ولازالت أثارها تبدو على منضدة الطعام ـ أكواب فارغة أطباق متسخة وبقايا طعام ..

أما تلك الحلوة التى لقى اثنين من الرجال حتفهم بسببها ـ زوجها المسن وذلك المعجب الولهان الذى أطلق زوجها النار عليه فقد ذهبنا لزيارة قبرها لقراءة الفاتحة على روحها بعد أن اندثرت عائلتها وتفرقوا بعد تلك الحادثة المروعة التى تعرضت لها ابنتهم..

كان القبر يبدو مهدما مهملا كئيبا وقد ناثرت الحجارة والتراب فى كل مكان .

وضعنا باقة من الزهور النادرة على قبرها ثم انصرفنا وأنا أجفف دموعى التى سالت على خدودى بلا حساب طلبت من صديقتى فى استحياء أن نذهب لزيارة قبر جدتها رحمها الله التى رعتهم فى طفولتهم أثناء انشغال أمها فى عملها بشركة البترول ودمعت عينى صديقتى وهى تقول لى ..

ـ لقد ماتت بالاراضى الحجازية ودفنت هناك ـ فقد صممنا جميعا على ان تحج إلى بيت الله الحرام وتعاونا نحن احفادها على تحمل مصاريف الرحلة ـ ولقد أكرمها الله فلاقت حتفها خلال

رحلة الحج وصممنا على أن تدفن هناك ـ لقد عاشت تعطى من نفسها كثيرا ونحن نذهب سنويا لأداء العمرة وزيارة قبرها لكى نضع عليه باقة من الزهور .

عدت وأنا فى قمة حزنى واكتآبى أن يكون هذا ما آل إليه حال هؤلاء السيدات الفاضلات ولكنى عدت فتذكرت ان الموت حق علينا سواء أكان معنويا أم ماديا .

وكنت كلما زرت صديقتى أمعن النظر فى الصور المعلقة على الحائط وأهمس لنفسى :

يكفى ان بقيت لنا منهن هذه الصور لتروى للأجيال سيرتهن وهن فى قمة التالق والعطاء والنجاح مكتسحة فى طريقها كل عوامل الزمن والفناء ..

عندما أخرجت رزمة من الخطابات القديمة من دولاب الحائط لكى تقرأ بعضـها فتحتفظ بالبعض وتمزق البعض الاخر فى محاولة لاعادة ترتيب أوراقها لم تكن تدرى أن هذه المشاعر سوف تنتابها وان قصة من قصص الحب النادرة سوف تتمثل أمامها .

أول خطاب أخرجنه من مظروفه لكى تقرأه كان يحمل تاريخا بعيدا اغسطس عام ١٩٥٣ أى منذ أكثر من خمسين عاما .. ماذا كان يحمل الخطاب !! عواطف حارة ملتهبة لشاب فى أوائل العشرينات من عمره يوجهها لحبيبته التى تقاربه فى السن.

قصة حب نمت وترعرت خلال السنة النهائية من سنوات الدراسة بالجامعة لكليهما .

كانت الحبيبة .. كما يبدو من الخطابات المرسلة إليها قد سافرت الى المصيف مع عائلتها وبقى هو بالقاهرة يقاسى من الوحدة ومن حرارة شهر اغسطس بجوار أمه المريضة .

تركت الخطاب جانبا وسرحت بأفكارها .

لو قدر لها أن تعيش الحياة مرة أخرى لما فعلت ذلك وما تركته وسافرت لكى تلهو وتتمتع بالمصيف بينما هو وحيد بالقاهرة يجتر الامه واشواقه إليها .

كان الشاب يتهمها فى خطاباته إنها تتدلل عليه وان عواطفها نحوه اصبحت باردة وانها لاتحس بمشاعره بدليل انه يرسل لها كل

يوم خطابا حتى بلغ عدد خطاباته اليها ثلاثين خطابا فى شهر واحد بينما لم يتلق منها سوى سته خطابات فقط . وكانت هى ترد عليه بأنها التقاليد التى تحول بينها وبين الاسترسال فى التعبير عن عواطفها وسكب هذه العواطف على الورق وقد يراها أحد من أهله أو أهلها فتكون الكارثه حتى أنها حريصة ألا توقع باسمها على الخطابات التى ترسلها له.

لو قدر لها أن تعيش الحياة مرة أخرى لما فعلت ذلك فما أقساها على نفس المحب ألا يرى استجابة لعواطفه مهما كانت الظروف فالحب عاطفة رقيقة للغاية ويخدشها بل ويدميها هذا البرود وهذا التحفظ ..

خطاب أخر بلاتاريخ فتحت مظروفه فهالها أن وجدته مكتوبا بالحبر الاحمر ويحمل بين طياته ثورة هائلة وهذا ما جاء فى الخطاب.

بقلمى الاحمر بثورتى هذه اكتب .

الى الآنسة العزيزة ..

ثلاث حقائق ظهرت لى واضحة هو انه لا زال هناك كرامة وحب وشرف.

كرامة لن تهان وحب لن تعصف به الايام وشرف اقل ما يقال عنه أنه شرف صريع أو مصروع ..

حاولت ان انسى هذه الحقائق وانسى وقفتى نصف ساعة

«ملطوعا» فى انتظار تشريف السيادة وأنسى وحدتى حين ثرت فتركتينى فى زوبعه من التفكير .

- وانسى انتظارى ليلة ويوما وليله من مساء الأحد ٩ ـ ١ ـ ١٩٥٥ وحتى الآن ..
- وانسى اطمئنان بالك ونومك ملء جفونك دون ان تفكرى فى الاتصال بى ولو من باب المجاملة انت .. انت التى طالما حدثتنى عن الارق المستمر الذى يصيبك إذ ما حدث سوء تفاهم بيننا .

حاولت ان انسى هذه الحوادث حتى لا أسميها إهمال أو استهتاراً بالعواطف أو فتوراً فيها ولكنى فشلت ما دامت الثورة الحمراء تعصف فى دمى بين الضلوع .. الخ من تلك الكلمات الملتهبة الثائرة..

أنها لاتذكر تلك الحادثة ولاملابساتها ولماذا غضبت هى وتركته وانصرفت بعد أن ظل ينتظرها نصف ساعة كاملة ولماذا امتنعت عن الاتصال به يومين كاملين بعد ذلك ولماذا ثار هو والقى فى وجهها بهذه الكلمات الغاضبة الجارحة .. كل ما تشعر به الآن أنه فى كثير من الأحيان يكون المحبون ـ رغم كل ما يحمله كل منهما للآخر من حب ألا أنهما أحيانا يقفان مواقف غاية فى القسوة كل تجاه الآخر .

نتصفح المزيد من الخطابات ونمر على الأعوام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ فنجدها كلها تعبر مرة أخرى عن فيض من المشاعر من

الحبيب نحو محبوبته بل نجدها تسجل تطورا كبيرا فى علاقاتهما فنجد الحبيب يتحدث فى أمور الخطبة والزواج ويحلم - مع حبيبته بالبيت السعيد الذى سوف يبنيانه معا - ولكن يبدو أن هذا حال المحبين ثورة وغضب وتهديد ووعيد ثم صفاء وسعادة وهناء ولكن يبقى الجرح غائرا ليتبدى بعد ذلك فى ردود فعل غاضبة لامنطق لها ..

لو قدر لها أن تعيش الحياة مرة أخرى لما فعلت ذلك ولما جسرت ان تمس كرامة انسان بهذه الرقة وهذا الإحساس مهما كانت الدوافع والاسباب .

وعبر الخطابات نجد السنين تمر بنا فإذا بنا فى اغسطس عام ١٩٦٠ أى بعد سبع سنوات من بداية قصة الحب بينهما فماذا نرى..

أول خطاب فتحته فى تلك المرحلة كان مرسلا منه إليها على عنوان آخر يبدو أنه عنوان بيت الزوجية وكان يحمل طابع بريد دولة أجنبية أى أنه هو هذه المرة الذى يسافر وهى تبقى بمصر وحدها.

فماذا يحمل الخطاب - إنه يوصيها فيه ان تعتنى بصحتها خلال فترة الحمل وهاهو خطاب منها إليه يبدو انه احتفظ به بين اوراقه - تشكو له فيه وحدتها وهو بعيد عنها وفى الشهور الأخيرة من الحمل وخشيتها من أن تضع مولودها الأول وهو بعيد عنها ..

بعدت المسافات بينهما وفترت عواطفة نحوها وأصبح هو فى

الموقف الأقوى ـ خطابات كثيرة منه إليها دائما من الخارج وكأنه كان على موعد مع السفر والترحال طوال سنوات حياتهما معا ..

سنوات كثيرة تطوى ١٩٦١ ـ ١٩٧١ ـ ١٩٨١ خطابات مرسلة إليها من الخارج خلال تلك الفترة يوصيها فيها بالعناية بنفسها وبوالدته وابنهما ـ الذي صار شابا يافعا مع حلول عام ١٩٨١ . اما ما تخلل ذلك من أحداث فلاتعثر له على اثر فى كومة الخطابات امامها بل وجدته محفوراً فى الذاكرة .

فبعد عودته من احدى سفرياته الكثيرة للخارج ولانها وجدت نفسها فى الموقف الضعيف ـ وهى تأبى على نفسها ذلك ـ تفتق ذهنا عن حيلة تشعل بها عواطفه وتثير غيرته بعد ان فترت عواطفه نحوها بسبب سفرياته الكثيرة فقد عمدت الى وضع بعض الخطابات فى طريقه ـ وهى خطابات لا أهمية لها كان قد أرسلها إليها أحد المعجبين من زملائها بالجامعة وقبل أن تعرفه هو ..

وضعت هذه الخطابات فى طريقة فماذا كان رد فعله هو بعد أن قرأها .. لقد عمد هو الآخر إلى وضع بعض الخطابات فى طريقها هى خطابات يبدو أنها لم ترسل بعد كتبها لفتاة أجنبية يبدو أنه تعرف عليها فى احدى سفرياته للخارج يعبر لها فيها عن حبه ويعدها بالزواج منها بمجرد طلاقه من زوجته الأولى ـ وهو يقصدها بالطبع ـ وتكون الصدمة الهائلة بالنسبة لها وماتبع ذلك من محاولة الانتحار والإصرار على الطلاق ويكون رفضه هو البات لفكرة

الطلاق وتكون حيرتها هى فى معرفة حقيقة هذه الخطابات .. هل هى مجرد تمثيلية من جانبه لكى يكيل لها الصاع صاعين ـ أم أنه كان جادا فى ارسال هذه الخطابات للفتاة الاجنبية ولكنه عدل عن الفكرة ازاء ما اقدمت عليه من محاولة الانتحار وطلب الطلاق ..

علامات استفهام كثيرة بدأت تظلل حياتهما معا كان من نتيجتها زيادة الجفوة بينهما لسنوات وسنوات .

وقد تسالونى أكان كل ذلك مكتوبا ايضا فى الخطابات وجوابى على ذلك انه يبدو انها كانت تكتب مذكراتها عن تلك الفترة من حياتهما معا وانها وجدت هذه المذكرات ضمن الأوراق الكثيرة التى عكفت على اعاده ترتيبها .

لو قدر لها ان تعيش الحياة مرة أخرى لما فعلت ذلك ولما بدأت هى بالعدوان دون أى مبرر ووضعت مثل هذه الخطابات فى طريقه ـ فى محاولة ساذجة لإثارة غيرته وهى تعلم مدى حبه لها وغيرته عليها .

وسارت فى غها ـ وسار هو فى غية وزادت الجفوة بينهما الى أن اكتشفت بمحض الصدفة بعض الخطابات والصور مرسلة اليه من زميلة فى العمل تبثه فيها حبها وغرامها وتوكد له فيها انه سوف تظل تحبه الى الأبد وعندما واجهته بهذه الخطابات والصور قال لها فى عبارات صريحه ان هذه الفتاة قد دخلت حياته وانه لا يستطيع الاستغناء عنها ـ وعندما حاصرته بالأسئلة المحمومة لم يعطها جوابا

شافيا .. !

وهكذا ظلت على حيرتها إزاء هذه العلاقة والأيام والسنين تمر بها - عشرة عشرون ثلاثون عاما إنشغل هو فيها بحياته وانشغلت هي بحياتها وعملها ولكن ظلت هناك علامة استفهام تظلل حياتهما معا عن حقيقة هذه العلاقة التى تربطه بهذه الفتاة هل كانت زوجة ثانية له فى الخفاء أم لانها ضربت حصارا حوله وتشبثت به فلم يستطع الفكاك منها - ام ان تصرفاتها هى الحمقاء معه هى التى دفعته الى هذه العلاقة أم ماذا .. وظلت هى ليأسها من معرفة سر هذه العلاقة - ظلت تتغابى عنها إلى أن وقعت الواقعة التى قلبت مشاعرها نحوه رأسا على عقب حيث اصيب وهو سائر فى الطريق العام - أصيب بأزمة قلبية افقدته توازنه فوقع على الأرض وارتطم وجهه بالسور الحديدى الذى يفصل الطريق فأصيب فى عظام وجهه اصابات بالغة ..

وفى ذلك تقول فى مذكراتها

الساعة الآن الثالثة تماما ، ركنت عربتى ، أدرت المفتاح فى قفل الباب ،أنوار البيت كلها مضاءة ، صرخت فى فزع . ماذا حدث ..

- زوجك أصيب فى حادث ..

سلالم المستشفى عالية عالية الممر طويل لاينتهى .. هناك رأته. نعم كان هو - عرفته فى التو واللحظة رغم الوجه المنتفخ زوجها هو زوجها - لطخت الدماء وجهه .. يحملونه على سرير متنقل عائدا

من حجرة الأشعة إلى حجرته وخلفه يسير ابنه حاملا صور الأشعة في يده ..

ـ الرأس سليم تماما ـ الحالة مطمئنه لاتجزعي يا ماما ..

ـ هل استطيع أن أجلس بجواره ..

هكذا سألت الممرضة .

دعينا نستثمر وقتك فيما ينفعه ..

بكل الحب بكل الرغبة في عمل شئ من أجله بدأت تغمس قطع القطن في المياه الدافئة وتمسح الدماء المتجمدة من على وجهة .

الوفود تتدفق على المستشفى العام مع سماع الخبر ـ زملاء في العمل ـ اقارب ـ أصدقاء منذ الصغر يا ألهي ما كانت تتصور ابدا أن كل هؤلاء اصدقاءه واحبابه عرفت ان حياته كلها قد وهبها لهم وكان ذلك مصدر من مصادر النزاع بينهما .. وقته لم يكن ملكه أو ملكها .. ماذا استفدنا من ذلك نعيش نفحت في الصخر وانت تقدم ايامك قربانا للاشئ رصيدنا في البنوك يتناقص كل يوم ورصيدنا في القلوب .. يا الهي ما كانت تحسب ان الرصيد في القلوب أغلى من الرصيد في البنوك .

واحد اثنان ثلاثة .. عشرة عشرون ثلاثون يوما ودماء الحياة تعود اليه قطرة قطرة وهي بجواره ترعاه وتخفف آلامه بأنفاسهاالحارة بذهنها بتفكيرها السريع وحركتها المتصرفة عاشت معه ثلاثين يوما دقيقة بدقيقة عاشت بجواره .. لو قدر لها تعيش

الحياة مرة أخرى لما فعلت غير ذلك ..

ولفعلت ما فعلته تماما حتى آخر لحظة وحاولت استعادة حبه مرة أخرى ولبذلت المستحيل للإحتفاظ به ولظلت بجواره تغمده بفيض حبها وحنانها ولفعلك كما فعلت ـ بعد ذلك بأعوام وخلال مرضه الطويل ولظلت قابعة بجواره تغمده بغيص مشاعرها المختزنة بين الضلوع الى ان سكنت الانفاس وتوقف القلب واسدل الستار عن قصة من قصص الحب النادرة رويتها لكم كما عاشتها تماما خلال رزمه من الأوراق والخطابات القديمة عثرت عليها صاحبتنا فى دولاب الحائط قبعت فيه هامدة ساكنه لمدة تزيد على خمسين عاما الى أن امتدت اليها يد حانية لتعيدها الى الحياة قصة حب نابضة بالحياة تحمل فى طياتها اجمل المشاعر واصعب المحن واقصى لحظات الندم ولو كانت قد تركتها مكانها فربما كانت قد امتدت اليها يد عابثة فمزقت صفحاتها فيصبح من الصعب بل من المستحيل بعث الحياة فيها مرة أخرى فيمحوها النسيان إلى الأبد..

والليـــل إذا جـــاء

ماذا تفعلين يا أمي ؟ وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

هكذا إبتدرنى ابنى وهو يرانى جالسة امام جهاز الكمبيوتر وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل ارتبكت اغلقت الجهاز نهضت وواجهته فى خجل ماذا اقول له ومن اين أبدأ هل اقول له اننى انتهزت فرصة غيابه عن المنزل فى زيارة والده وربما للمبيت لديه لكى انشغل بهوايتى المفضلة التى اخفيت أمرها عنه فاصبحت سرى الكبير .

جاء صوتى مرتجفا متلعثما

ـ كنت احاول تنظيف الجهاز فتعثرت يدى فى المفتاح فانفتح .

كنت كاذبة وقد عرف هو ذلك ولكنه قال فى صوت تشوبه الرقة والحنان .

ـ فى هذا الوقت المتأخر من الليل بدل أن تدلفى الى فراشك تنشغلين بالتنظيف ؟

ـ لاعليك يا ابنى فربة المنزل تقوم بواجباتها فى أى وقت ولاتعرف الليل من النهار .

قال وهو يفحص الجهاز .

ـ هذا الجهاز شديد الحساسية .

اعرف يا ابنى العزيز . اعرف مدى اعتزازك به فهو هدية من والدك بمناسبة نجاحك فى الاعدادية هذا العام بتفوق .. أصبحت

انت ووالدك تكونان جبهة واحدة فوالدك . قد هجر المنزل منذ سنوات بعد ان انشغل بزوجته الجديدة التى انجبت له ثلة من الاولاد.. ولكنه يراك احيانا ويغمرك وبعطفه الى أقصى الحدود .

انت لاتعرف يا ابنى مدى عذابى ووحشتى اذا جاء الليل واضطررت إلى دخول الفراش حينئذ آخذ فى التقلب يمينا ويسار وانا استجدى النوم فيتمنع على ويجافينى واظل مفتحة العينين أحدق فى سقف الحجرة المظلمة وقد سكن كل شئ حولى بعد أن أغلقت حجرتك عليك لتنام .

هل جربت يا ابنى الشعور بالاكتئاب بالطبع لا فأنت لازلت على أعتاب الشباب وأنا ووالدك برغم الانفصال نحيطك برعايتنا وحبنا ولانبخل عليك بشئ ـ المستقبل أمامك وحياتك مزدهرة باسمة من اين يأتيك الاكتئاب ؟

الشعور بالاكتئاب يا ابنى ان يشعر المرء بالموات بانه لم يعد له دور فى الحياة وانه لم يعد فيها ما يبهجه أو يثير حماسه . هو يأس مطلق والرغبة فى الفرار من الحياة بأى وسيلة .

هذا الشعور يا ابنى كان يهاجمنى كل ليله متى أويت الى فراشى فأستعين فى التغلب عليه بالمهدئات ثم أصحو فى اليوم التالى منهكة القوى مشتتة الفكر غير قادرة على التعامل مع الناس أو مع الحياة بفعل هذه المهدئات.

أعرف اننى مازلت فى ريعان الشباب فلم أتجاوز الأربعين من عمرى وأن هناك فرصا كثيرة أمامى للزواج مرة أخرى ولكنك تعرف

يا ابنى أننى لايمكن أن اتخلى عنك ابدا حتى لو تخليت عنى ، أعرف أن لك حياتك المستقلة عنى أصدقاؤك وكتبك ومدرستك وهواياتك ، كل ما افعله يا ابنى أننى أحاول أن أشغل وقت فراغى بشكل مفيد حتى يمكن لى مواصلة الحياة وتأديه واجبى نحوك ولكن لماذا لاأقص عليك الحكاية من البداية .

ففى إحدى الليالى وكان النوم قد استعصى على فيها كالعادة واتتنيى فكرة أن أجلس امام الكمبيوتر كما تفعل أنت فى محاولة لاكتشاف اسرار هذا الجهاز العجيب بعد ان علمتنى كيف يغلق وكيف اتعامل مع البريد الالكترونى والانترنت وخطوة خطوة من خلال الانترنيت قادتنى محاولاتى الى التعامل مع غرفة الدردشة فاكتشفت كنوزا ما كنت احلم بها ، رجال ونساء كبار فى السن يتوقون الى التواصل مع الآخرين.

نساء وحيدات مثلى ، شباب على اعتاب الحياة كلهم يطلبون صداقتى . حاولت ان استرسل فاذكر لابنى المزيد من التفصيلات ولكنه قاطعتى ..

- ولكن يا أمى هذه لعبة خطيرة ماذا لو تبجح عليك البعض وأرسلوا اليك عبر الانترنيت بعبارات لاتليق .

- أنت تعرف أن هناك مفتاحا خاصا لمعالجة هذه الحالات بمجرد الضغط عليه تنقطع تماما صلتك بهذا الشخص ويستبعد من قائمة الأصدقاء .

لم أشأ أن أخبره أننى استبعدت الكثيرين من قائمة الأصدقاء

بعد أن بدأوا يقتحمون على حياتى بل ويعرضون على الزواج .
نسيت أن أحكى لكم أننى على درجة كبيرة من الجمال والثقافة وخفة الظل .. كان أول المتقدمين للزواج منى مهاجر مصرى الى استراليا ماتت زوجته ويملك مزرعه هائلة هناك.

غاية الأمر أننى يجب أن أتحمل أن يشاركنا ابنه الصغير حياتنا مع قبوله التام لمشاركة ابنى لنا فى هذه الحياة.

تصورت نفسى اتجول فى المزرعة الهائلة أقطف من ثمرها الاستوائية وأتمتع بمنظر الطبيعة الخلابة أشاهد الطيور ذات الانواع النادرة والالوان الزاهية واندمج مع الجالية العربية هناك .. حياة جديدة على تماما ولكن لابأس فلافكر فى الموضوع.

عرض ثالث جاءنى من شاب اردنى متزوج تقدم للزواج منى فهو يكن حبا كبيرا لمصر بشرط أن يقضى نصف العام معى بمصر ونصف العام الآخر مع زوجته وأسرته ، طاب لى هذا العرض الأخير حتى اتفرغ تماما لأبنى الوحيد ..

قلت له أفكر فى الموضوع وأرد عليه .. وظللت أفكر وأسرح فى الخيال .. ما أجمل أن يعيش الانسان فى الخيال ..

وفى خضم كل ذلك وأنا أعيش عبر الانترنيت حياة ثرية مع أصدقاء غرفة الدردشة وأحلق فى عالم الخيال أجوب انحاء العالم وأنا جالسة فى بيتى أمام جهاز الكمبيوتر ، وابنى نائم فى حجرته لايشعر بى ، وفى الصباح أصحو مبكرة لاعدله السندوتشات التى سياخذها معه الى المدرسة وابتسم له فى حنان ، فى خضم هذه

الحياة المزدوجة التى اعيشها صادفت شابا من الارجنتين يدرس الدكتوراه فى تاريخ مصر الحديث . قلب حياتى رأسا على عقب وغير اتجاهى تماما ..

حيث طلب منى أن أمده بالمعلومات عن هذه الفترة من تاريخ مصر حيث لم يجد هذه المعلومات متوافره فى بلاده ، حرت فى امرى فرغم اننى على درجة كبيرة من الثقافة وخريجه جامعة فإننى لا أملك هذه المعلومات .. تاريخ مصر الحديث ما أكثر الكتب التى كتبت عن هذا الموضوع بمصر .. وهكذا عكفت على الكتب والمراجع التى تتحدث عن هذه الفترة من تاريخ مصر والتى جمعتها من المكتبات .. ومع انشغالى بذلك أصبحت لا أطيق هؤلاء العرسان أو الخطاب الذين يتقدمون الى ويلحون فى طلب الزواج .. ضغطت على الزر الخاص باستبعادهم تماما من مجموعة الاصدقاء ..

- كيف تكشفين عن شخصيتك وظروفك أمام هؤلاء الغرباء يا أمى أنت أثمن من ذلك بكثير ..

- أنا لم اكشف عن شخصيتى يا ابنى ..

لم أشأ أن أخبره بما حدث لى بعد ان كشفت لهم فى البداية عن ظروفى وأرسلت لهم صورتى وعنوانى وشعرت بالخجل أمامه لو ذكرت له هذه الأشياء .. قلت له ولم اكن كاذبة فى ذلك إننى استخدم اسما مستعارا ولا أحد يعرف من انا ، شيئ واحد يعرفونه أننى اخت لهم فى الانسانية تنشد المؤانسة والتواصل مع الآخرين وتبادل معهم المعلومات سكت الفتى قليلا ثم قال :

ـ ومع من تتراسلين وأى حوار هذا الذى يدور بينكم ؟

اكثر ما يهزنى هو ذلك العدد الهائل من الشباب المثقف المتعلم الذى يعانى من البطالة .. تصور أن بعضهم يطلب منى أن أتوسط له فى الالتحاق بأى عمل .

ـ وبماذا تجيبينهم ؟

ـ اقول لهم ليس فى يدى أن أفعل شيئا من أجلكم سوى تقديم النصح لكم وأوصيكم بالإيمان بالله مؤكدة لهم أنتى يمكن أن أكون أختا لهم أو أما يهمنى أن أتابع خطاهم وأوجههم إلى الطريق السليم وهم يشكرون لى هذا الشعور .

وعندما رانى ابنى ذات صباح ارتدى ملابسى استعداد للخروج سألنى فى دهشة عن وجهتى وهو يعلم تماما أننى لا أميل للخروج من المنزل كثيراً قلت له إننى ذاهبة لشراء بعض الأشياء.

وعندما عدت إلى المنزل وأنا أحمل مجموعة من الكتب والنشرات وعكفت على قراءتها واستخلاص أهم ما فيها من معلومات أسرعت إلى جهاز الكمبيوتر لأرسل هذه المعلومات إلى أحد زملاء غرفة الدردشة كان قد طلب منى بعض المعلومات عن فترة حكم البطالمة لمصر وأثرهم على مدينة الاسكندرية بالذات وتأثر مصر بالحضارة اليونانية حتى الآن .

وهكذا تعود ابنى أن يرانى جالسه وحولى أوراق كثيرة أكتب وألخص وأترجم . وفى كل مرة كنت أنقل هذه المعلومات إلى زملاء غرفة الدردشة كنت أشعر أننى أؤدى خدمة كبيرة لوطنى ولمجتمعى

وكان ابنى يشاركنى هذا الشعور.

وعندما اتذكر كيف تورطت فى البداية وكشفت لهم عن شخصيتى وخصوصياتى بل ارسلت لهم صورتى وعنوانى وكيف ظلوا يلاحقوننى بطلبات الزواج ابتسم لنفسى وأقول إنها تجربة من تجارب الحياة لم تضرنى فى شئ ولكننى تعلمت منها الكثير.

لكم ان تتصوروا امرأة مثلى لم تعمل فى حياتها بعد تخرجها من الجامعة بعد أن صمم زوجها السابق .عل اكتفائها بوظيفة ست البيت امرأة كهذه تظل لأعوام طويلة حبيسة جدران المنزل لاتفعل شيئا سوى قراءة الجرائد ومشاهدة التليفزيون حاولت بعد طلاقها الالتحاق بأى عمل ولكنها لم توفق فى الحصول على وظيفة حيث تجاوز سنها سن التعيين .. تستعين على العيش بذلك الايراد الكبير الذى تركه لها والدها وبجانبه معاشه الذى عاد إليها بعد الطلاق.

أمرأة تظل طول الليل فى حالة أرق لقلة المجهود الذى تبذله طوال النهار تستجدى النوم وتدعو الله أن يمنحها نعمة النعاس . عندما تتفتح الحياة أمامها فجأة ويصبح لها لأول مرة دور إيجابى فى الحياة بإيجاد جسر من التواصل والتفاهم بين مجتمعها ومجتمعات العالم بأسره وهى جالسة فى منزلها لم تبرحة . وبعد أن تنتهى من شؤون المنزل والمذاكرة للابن الوحيد وبعد أن كان تفكيرها منحصرا من قبل فى البحث عن طريقه تستطيع بها أن تهرب من الهواجس والأوهام التى كانت تهاجمها كل ليلة والتى كانت تدور

فى غالبيتها حول الحزن على ما فات من العمر والخوف مما هو آت . اتسعت دائرة اهتمامها لتشمل العالم كله ويصبح لها أصدقاء فى اليابان وكندا ونيوزيلاندا والشرق الأوسط والصين تتبادل معهم المعلومات المفيدة لهم ولها بعد أن كانت دائرة أصدقائها لاتتعدى حدود بعض الأقارب والجيران ومجمل اهتمامها لايتعدى مسائل الطهو والأزياء .

وفى ذلك اليوم الذى لن انساه ابدا دق جرس الباب بمنزلى وكان الطارق لدهشتى وصدمتى هو أحد اصدقاء غرفة الدردشة ذكر لابنى اسمه الحقيقى لااسمه المستعار اشرت لابنى بيدى حيث رد عليه فى أدب وحكمة لاتتفق مع سنه الصغيرة أنه قد أخطأ العنوان، ثم أغلق الباب .

وظللت بقة النهار أتمنى ألا يكون هذا الشخص هو زميلى فى غرفة الدردشة من الارجنتين فانا أدين له بالكثير فقد غير اتجاهى ونقلنى من حال الى حال .

ولكنى عدت فتذكرت اننى لم اعطه عنوانى وأن الطارق لابد ان يكون أحد طالبى الزواج ممن تهورت فى البداية واعطيتهم عنوانى وحمدت الله ان ابنى قد انقذنى من ورطه كنت سأقع فيها لو أننى أنا التى فتحت الباب .



قصص قصيرة جداً

سونيا .. باى .. باى

عندما قابلته فى لندن فى إحدى زياراتها للتليفزيون البريطانى قال لها إنه يحب مصر كثيرا فقد عمل فى الجيش البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية وأمضى سنوات من أسعد سنوات حياته فى الفيلق البريطانى الذى اتخذ موقعه بمدينة الاسماعيلية فى ذلك الوقت.

حدثها كثيراً عن ذكرياته بمصر ومدينة القاهرة بالذات وتردده على ملاهيها الليلية وارتباطه بفنانة شابة كانت آية فى الجمال وخفة الظل وكانت صديقة حميمة لعدد كبير من جنود الجيش البريطانى وأنهم أحبوها كثيرا وأطلقوا عليها اسم « سونيا .. باى.. باى » وأنه علم أنها تعمل الآن ممثلة بالسينما وأنها اصبحت أحد نجومها الساطعة .

قالت له إنها رغم عملها بمجال الفن وصلتها بوسط الفنانين فإنها لم تقابل أحداً بالوسط الفنى بهذا الاسم .. رجاها أن تبلغ سلامة لها إذا قابلتها وتذكرها بتلك الأيام التى أمضاها معها بملاهى القاهرة .

وعندما عادت إلى مصر بعد ذلك ظلت تسأل كل من تقابله من أهل الفن عن فنانه شابة عاشت خلال الاربعينات بهذا الاسم فلم يتعرف عليها أحد وبدافع من حب الاستطلاع ورغبة فى توصيل رسالة مسئول التليفزيون البريطانى الذى يحمل أجمل الذكريات لمصر منذ أن عمل بها جنديا فى جيش الانجليز ظلت تتابع الأفلام المصرية القديمة التى يعرضها التليفزيون لعلها تجد فى أسماء ممثليها لواحدة بهذا الاسم فلم تعثر عليها أبدا حتى ظنت أنه اسم الشهرة واحدة من ممثلاتنا لاتحب أن يعرف عنها أحد أنها كانت تحمل هذا الاسم فيما مضى خلال الحرب ..

كان هو يراسلها أحيانا ويسألها عما إذا كانت قد عثرت عليها وإذا كان ذلك قد حدث فهل أبلغتها رسالته وحنينه لرؤيتها فكانت ترد فى كل مرة بإنها حتى الآن لم تتعرف على واحدة بهذا الاسم.

قابلت بعد ذلك رجلا مسنا كان يعمل ريجسيرا وتأكد لها أنه لابد قد عاش ذلك الزمن ولابد أنه يعرف هذه الفنانة التى حدثها عنها لقد صدق ظنها فقد تعرف الرجل عليها وقال إن اسم «سونيا.. باى.. باى » هو اسمها الحقيقى ووعدها بأنه إذا عرض

لها أحد الأفلام القديمة يتصل بها .

وبالفعل اتصل بها الريجسير وقال لها فى لهفه افتحى التليفزيون الآن وسوف تشاهدينها .

فتحت التليفزيون وكلها شوق لرؤيتها ظلت تتابع الممثلات اللاتى اشتركن فى الفيلم فلم تجدها اتصلت بالريجسير على الفور وعاتبته.

فى تلك اللحظة ظهرت على الشاشة سيدة عجوز قبيحة ثقيلة الظل فى دور صغير لم تتفوه خلاله بأكثر من ثلاث كلمات .. هتف الريجسير عبر الهاتف هاهى أمامك « سونيا .. باى .. باى» شهقت فى فزع أهذه هى فاتنة الأربعينات صديقة الجنود الانجليز!! وعندما اتصل بها وسألها عنها كعادته ذكرت له أنها رأتها بالفعل فى أحد الافلام القديمة وأنها ما زالت على قيد الحياة، وعندما سألها أما زالت على جمالها وخفة ظلها رغم علامات السنين الى لابد أن تكون قد ظهرت عليها أخبرته أنها ما زالت على جمالها رغم مرور كل هذه السنين.

وعندما جاء لمصر وطلب أن يراها لم تجد بدا من الكذب عليه

فذكرت له أنها للأسف توفيت منذ أيام وعقب محادثتهما التليفونية الأخيرة أحست بألمه لكنها شعرت أنه لو كان قد عرف الحقيقة لبلغ « ألمه » أضعاف أضعاف فما أكثر ما ننسى ما يمكن أن يفعله الزمان بنا.

الدمية

كانت بالنسبة لنا مجرد دمية صغيرة نلعب بها ببشرتها الوردية الناعمة وعيونها الزرقاء اللامعة وشعرها الأشقر الناعم الذى يغطى جبينها وينسدل على جانبى وجهها.

عندما احتفلنا بعيد ميلادها الأول .. كان ذلك بإحدى قرى الساحل الشمالى .. كان حفل عيد الميلاد حدثاً مهماً بالنسبة للقرية الساحلية كلها لما بذل فيها من سخاء سواء فى الموائد الممتدة بأشهى الأطعمة أو فى الديكورات الرائعة .. وكان أول ما يصافح نظرك عند دخول الشاليه .. مكان الاحتفال .. هو تزاحم البالونات الملونة على باب الشاليه والأغانى الطفولية تنبعث فى المكان وتمتزج بضحكات الأطفال وصخبهم فتضفى على المكان كله جوا ساحراً من البهجة والمرح والسعادة والبراءة المحببة.

فى عيد ميلادها الثانى .. وكان ذلك بشقة والديها الشابين بحى جاردن سيتى بالقاهرة كان أول ما لفت النظر هو ذلك الكم الهائل من الفساتين الجميلة التى أهداها لها الأقارب والأصدقاء وكم كانت فرحتها بها بعد أن بدأت تدرك أنها جميلة وأن هذه الفساتين سوف تضفى عليها جمالا فوق جمال ، كنا نهدهدها ونحتضنها وكانت تشعر بيننا بأنها ملكة وأن الملكة تأمر فتطاع..

كانت فوق جمالها شديدة الذكاء وخفة الدم وكان الإحساس بالموسيقى قويا للغاية عندها فبمجرد أن نسمع نغماتها نجد قدميها الصغيرتين تتحركان فى إيقاع جميل يصفق له الجميع.

فى عامها الثالث صنعت لها « نانا » جدتها لأبيها .. فستانا رائعا بدت فيه .. وهى تختال يمينا ويسارا فى زهو وسعادة إنها فعلا ملكة غير متوجة.

فى بداية العام الدراسى الجديد .. وكان والداها الشابان قد انتقلا للسكنى بإحدى الضواحى الجديدة عند أول طريق السويس .. أصر الوالدان على إدخالها فصل الحضانة الأول بإحدى المدارس الأجنبية الخاصة ذات الصيت العالمى بالضاحية ، بدت يومها فرحة بمريلتها الأنيقة وحقيبة المدرسة فى يدها الصغيرة وأمها الشابة تسير بها متجهة إلى المدرسة التى لاتبعد إلا خطوات قليلة عن الفيلا التى يسكنونها.

بمجرد دخولها من باب المدرسة شعرت بأن شيئاً مروعاً قد حدث، لقد وجدت عشرات الأطفال مثلها مدللين مثلها .. يرتدون نفس زيها لكن دون أهل حولهم يبكون ويصرخون ويتشبثون بأمهاتهم رافضين الدخول خلف أسوار المدرسة ومدرسات ذوات ملامح غريبة عنهم إنتزعن الأطفال من ذويهم ليصبحوا مجرد أطفال عاديين بين

عشرات الأطفال العادين لايثيرون أى اهتمام خاص بهم.

شعرت بانقباض في قلبها الصغير .. لقد أنزلوها عن العرش الذى تربعت فوقه ثلاث سنوات كاملة وألقوا بها خلف الجدران العالية الباردة ثم الآن يقولون لها أنت مجرد طفلة وسط عشرات بل مئات الأطفال مثلك ؟؟

صرخت وبكت ورفضت أن يتركوها وحدها ولسان حالها يقول : لماذا أوهمونى بأن الحياة سوف تستمر وردية ؟؟ مجرد سلسلة من المباهج وفى الحقيقة إنها شئ قاس وبشع ؟

وهكذا بدأت الدمية أولى خطواتها على طريق الحياة بكل حلوها ومرها لتكتسب الصلابة والقوة ساعتها لن تسمح لأحد بأن يعاملها كدمية .

عـلاقة خفيـة

عندما شعرت بآلام المرض لم أجد أمامى أحدا سواه - الحاضر الغائب فلجأت إليه كما كنت ألجأ فغمرنى بفيض حنانه ورعايته واهتمامه كما كان يفعل معى دائما فيما مضى.

عندما تمتزج مشاعر الحب بإحساس غامض بأن الموت وشيك يصبح لديك شعور غريب إنك على وشك الدخول فى تجربة فريدة لم تتعرض لها من قبل ..

الحب أن تكون مفعما بالحياة .. مقبلا عليها .. جاهزاً تماما للانصهار بداخلها أما الموت فهو حالة توقف - جمود - نهاية - إزاحة لكل المشاعر جانبا لأنك فى هذه الحالة لا علاقة لك بأي شئ سوى ذلك السجن الضيق الذى هو إطار جسدك الفانى - فكيف تشعر بالحب وجسدك مثخن بالجراح ولا إحساس بداخلك سوى الإحساس بآلام الجسد تحاول استنشاق الهواء فلا تستطيع لأن صدرك ضيق وأنفاسك لاهثة وعقلك مشوش بفعل تصاعد أبخره المرض إلى تلافيف المخ غير القادر على تبين الأشياء بوضوح - ومع ذلك فمشاعر الحب تحاول أن تشق طريقها داخل الروح العليلة والجسد المكدود بصعوبة بالغة وجهد لايلين عندئذ يأتيك شعور بأن هذه أنسب لحظة للموت أن تموت وأنت ممسك بيد من تحب - يوجهك حيث الشفاء - يحنو عليك يدللك ينفخ داخل روحك لكى يبعث

بداخلك الحياة.

أخذت أصارع وأصارع وهو يحنو على ـ ويسأل عنى وكأنما يريد أن يعلن أمام الجميع أنه لايزال موجودا بعالمنا هذا وأن أمرى لازال يهمه وأنه يرعانى من بعيد لكى يكون حرا فى التصرف ـ فى الإعلان عن علاقتنا الخفية ـ علاقة بين إنسان لازال يعيش فى عالم الفناء وإنسان آخر قد تحرر من قيود الجسد وأصبح يهيم فى عالم الروح ولكنى أخاف على هذه العلاقة من بطش من حولى أذ ما علموا بها . أخشى أن يمسه ولو خدش بسيط من قسوة قلوب من حولى من موضوعيتهم الشديدة وعقلانيتهم التى ترفض جميع المشاعر عدا مشاعر الواجب الجافة المحنطة .. أخشى إن هم علموا بأمر هذه العلاقة أن يتهمونى بالجنون.

أشعر أننى اتمرغ فى حنانه رغم البعاد .. وهو يمضى فى حياته.. فى عطائه بعيدا عنا .. فى عالم آخر غير عالمنا . عالم كل ما فيه بالغ الإنسانية ناصع البياض ـ أراه أنا ولايراه غيرى فهو لا يظهر إلا لى .. فى صورة مغايرة لما كان عليه فيما سبق ـ ومن ثم لايمكن أن يتعرف عليه أحد غيرى ـ فأنا وحدى التى تعرف أنه هو.. بكل عطفه وحنانه ورعايته لى وإن اختلف الشكل الخارجى .

ما أجمل أن يموت الإنسان وهو فى أحضان من يحب ولو فى الخيال .. من بعيد .

لايمكن أن أنسى ذلك اليوم الذى تركاه ولداه معى وسافرا بضعة أيام إلى الأسكندرية لقضاء بعض شئونهما .. سافر ابنى وزوجته ومعهما ابنهما الصغير .

لقد سعدت أيما سعادة عندما تركا لى ابنهما الأكبر وأول حفيد فى العائلة لم يعد طفلا .. فهو الأن فى الثالثة عشرة من عمره.. طويل .. نحيل شاحب يجلس دائما أمام الكمبيوتر .. يفهم فى الأجهزة أكثر من أى فرد فى الأسرة ويعلن فى صراحة أنه لا يوافق على أسلوب التعليم القائم على التلقين.

هو دائم الشجار مع أخيه الأصغر الذى أخذوه معهم وسافروا .. شقيقه ملتزم .. مطيع .. يحفظ الدروس عن ظهر قلب ويحظى بحب أمه على عكس الإبن الأكبر دائم النقاش والجدال مع والديه .. شديد الإعتزاز بنفسه.

سارت الأمور بيننا على أحسن وجه .. حفيدى وأنا .. كتبت له أمه قبل سفرها ورقة بالواجبات التى يتعين عليه القيام بها .. وأطلعتنى عليها .. حفظت الجدول جيدا .. التزمت به وقلبى يرقص من الفرحة أننى سوف أكون مسئولة عن إنسان ما يحتاج إلى حنانى ورعايتى .. ولو لثلاثة أيام.

تعودت طوال حياتى على رعاية الآخرين .. والآن وقد رحل الزوج وتزوج الابن واصبحت له زوجة تراعه وتهتم بشئونة .. لم يعد

لى دور إلا فى مقاعد المتفرجين .. أشاهد ما يجرى أمامى وكأننى أشاهد فيلما سينمائيا دون أن أشارك فيه مر اليوم الأول فى يسر وسهولة .. فطبقا للجدول الموضوع قال لى حفيدى إنه سوف يذهب إلي صديقه الذى يسكن معنا فى الحى نفسه ليذاكرا سويا.

نظرت فى الجدول وتأكد لى أن هذا هو البرنامج .. انصرف الفتى فى فرحة وخفة ليذهب إلى صديقه ليذاكرا سويا .. بعد إنصرافه أغلقت باب حجرتى على كالعادة .. وانشغلت بالقراءة ومشاهدة التليفزيون .. ليس لى دور فى هذا اليوم.

تأخر الفتى كثيراً فى العودة .. عاد فى الساعة الحادية عشرة مساء بعد أن عشت لحظات توتر وقلق وسؤال مستمر عنه بالتليفون. ما إن رأيته أمامى سليما معافى حتى احتضنته فى حنان لكنه افلت منى .. فهو لم يعد طفلا وهو لايحب التدليل .. فليكن .. لابد أن أحترم مشاعره.

فى صباح اليوم التالى .. وبعد الدرس الخصوصى له وللمجموعة قال لى إنه ذاهب لصديقه ليذاكرا سويا وسوف يتناول غذاءه معه ولن يعود إلا فى المساء وكان هذا وفقا للجدول الموضوع .

لم اطق صبرا .. يوم آخر أقضيه بالمنزل بمفردى . حزمت أمرى وقررت أن أمضى اليوم بالنادى مع الصديقات . واتصلت بحفيدى قبل مغادرتى المنزل عند صديقه وأكدت عليه ضرورة الاتصال بى على التليفون المحمول إذا ما احتاج إلى أى شئ .

جاوزت الساعة السادسة مساء ولم يتصل بى .. تعشمت خيرا.. لم اتصل أنا به لأن رقم تليفون صديقه لم يكن معى .. وعندما عدت إلى المنزل قبل الغروب سمعت رنين التليفون يدق فى الحاح رفعت السماعة .. كان هو حفيدى .. قال لى فى صوت ضعيف.

* كت فين « تيتا » أنا تعبان .. تعبان

* ولماذا لم تتصل بى على المحمول .

* ضاعت منى النمرة كما ضاعت من والدة صديقى.

فى الساعة الثامنة والنصف صباحا فى اليوم التالى اتصلت بطبيب العائلة ورجوته أن يأتى إلينا سريعا .. فالفتى لم يكف عن إفراغ ما فى جوفة طوال الليل وجسده يشتعل بالحمى.

أعطاه الطبيب حقنة لإيقاف القئ وكتب له روشته العلاج وأوصانى أن أرعاه بنفسى . . فليس هناك .. على حد قوله من هو أحن من الجدة على حفيدها .

نزلت الدموع من عينى .. لم استطيع إيقافها .

بعد ساعتين كان الفتى قد استعاد نشاطه وأقبل على الطعام بشهيه ورغم ما حدث ورغم قلقى عليه .. فقد وجدتنى أحنو عليه وأرعاه بكل الحب والحنان .. والسعادة تغمرنى .. فاخبرا قد أصبح لى دور ولو لبضعة أيام إلى أن يتماثل للشفاء..

محـــاورة

نظرت أمامى إلى البواخر السياحية تتبختر على صفحة النيل بمياهه الرقراقة وهى تتلألأ بالانوار وتصدح بالموسيقى الساحرة فتعطر المكان بنغماتها المرحة المتفائلة .. همست له :

ـ ما أجمل السلام .

نظر إلى صامتا وعلى وجهه كلمات كثيرة يريد أن يفصح عنها فلا يستطيع .. أمسك بيدى فى حنان وضمها إلى صدره وشعرت بمشاركته لى فى التمتع بمظاهر السلام حولنا قلت له أن الملايين من تلاميذ المدراس يتوجهون إلى مدارسهم اليوم مع بدء العام الدراسى الجديد بالدعاء إلى الله مع نشيد الصباح بأصواتهم النقية الطاهرة لعل وعسى أن ينقذنا من الجحيم الذى يطرق الأبواب . لم يجب لكنى أحسست بالدموع تتجمع فى عينيه .. لكم أوحشه الأبناء والأحفاد . قلت له والدموع تترقرق فى عينى إننى بكيت عندما شاهدت الزوجة الشابة تودع زوجها والأبناء يقبلون أباءهم لحظة سفرهم على البواخر والطائرات متوجهين إلى ساحة القتال .. لا تهم الجنسيات فالإنسانية فوق كل اعتبار . سكت لحظة ولم يجب وعلى وجهه شتى الانفعالات وتذكرت أن له فى ذلك أراء وأراء صرخت فيه : الشعور الإنسانى أسمى من أى شىء والحرب خراب ودمار وجوع وفراق للأحباب.ظل صامتا فسكت والدموع تترقرق بداخلى .

سألته فى عصبيه ؟؟

* هل تؤيد الإرهاب ؟!!

تردد صوته على مسمعى آتيا من الأعماق ومن مخزون الذكريات

* أى أرهاب ؟!!

أعادت كلماته إلى مخيلتى صور الدمار والإبادة فى فلسطين ويوغسلافيا والشيشان تذكرت أنه منذ أكثر من مائتى عام أبيد شعب عن آخره لإقامة دولة أخرى تتحدث الآن عن الإرهاب .. لك الحق ..

أى إرهاب !!!

سكت لحظة وعدت بذاكرتى إلى الوراء تمثلت أمامى صورة الحياة الرتيبة المملة التى عشتها قبل أن تنفجر الأحداث حولنا .. قلت له:

* فى ظل التهديد بالحرب تتضاءل الأشياء .. مشاكل الحياة اليومية .. ألم الأسنان .. النوم المتقطع .. الحزن على ما فات .

لم يجب .. فلم تعد تعنيه مثل هذه الأشياء .. لقد تخطاها جميعا ولم يعد يشعر بها الآن.

صحوت من نومى فجأة .. بحثت عنه بجانبى فلم أجده .. وعرفت أننى كنت أثناء نومى أحاور زوجى الذى رحل منذ سنوات وكنا نتحدث كثيرا فى مثل هذه الأشياء..

غادة بنت الست أم غادة

كان حلم حياتها أن ترى إبنتها الوحيدة محامية أو طبيبة أو مهندسة لتنجو من ذلك المصير التعس الذى لاقته هى حيث عاشت طوال حياتها تعمل فى خدمة البيوت تكنس وتمسح تكوى وتطبخ.. كل يوم من بيت إلى بيت (فلم تعد البيوت تملك القدرة المالية فى الوقت الحالى لاستخدام شغالة دائمة بالشهر فأصبحت كل عائلة تجمع كل شغل البيت فى يوم واحد وتعهد به لشغالة باليومية على إنجازه دفعة واحدة) .. هكذا طوال أيام الأسبوع .. هد حيلها وضعفت صحتها وهاجمتها الأمراض .. ومع ذلك لم تتململ أو تحتج فالعشرون جنيها التى كانت تتقاضاها فى نهاية اليوم من كل بيت لكى يتجمع لديها فى النهاية ستمائة جنيها شهريا كانت كفيلة بأن تزيل عنها جميع المتاعب.

كانت أم غادة وهذا هو اسمها تدخرالقليل من دخلها أما معظمة فكانت تنفقه على ابنتها الجامعية .. على مأكلها ومشربها وملبسها .. فكانت غادة تبدو دائما أنيقة المظهر موردة الخدين بفضل الملابس غالية الثمن التى كانت تشتريها لها والطعام الجيد الذى كانت أمها لا تبخل عليها به .. كم إنتظرت الأم ذلك اليوم وكم حلمت به.

ومرت السنون سريعا وجاء اليوم الموعود .. احتفل أهل الحى

كله به .. زغاريد وزينات ورقص ومغنى وأنوار .. بنت أم غادة تخرجت من الجامعة .. يا حليلة يا أولاد .. الوحيدةالتى فلحت من بنات الحى معظمهن لم يفلحن فى المدارس وآثرن الزواج فى سن مبكرة وانجبن ثلة من العيال انشغلن بهم ولم تعد لهن أى طموحات شخصية .. والبعض الآخر عمل بالشهادة المتوسطة بائعات فى المحال بمرتبات هزيلة لاتتجاوز المائة جنيه شهريا أو أصبحن ينتقلن من محل إلى آخر حسب مزاج أصحاب المحال .. أما غادة فكان طموحها أكبر من ذلك بكثير .. فهى خريجة حقوق.

كل يوم تفتح جريدة الصباح على صفحة الإعلانات المبوبة لعل وعسى أن تعثر على وظيفة مناسبة لايهم أن يكون فى مجال تخصصها فهى تدرك تماما أحوال السوق ..

وهى على يقين من أنها بمؤهلاتها الشخصية ومهارتها فى التعامل مع الغير سوف تصل إلى ما تصبوا إليه من نجاح فى أى مجال سوف تعمل به.

فى إعلان داخل برواز ظاهر بالجريدة قرأت عن هيئة دولية ممن تقدم قروضا ومنحا للشباب تتيح فرص تدريب للشباب من الجنسين عن طريق إحدى الجمعيات الأهلية ذات السمعة الطيبة تمهيدا للتعيين فى وظائف غير تقليدية بمصر .. هيئة دولية مرة واحدة .. هذا أكبر كثيرا من كل توقعاتها ..

فى اليوم التالى كانت هناك ومعها كل الأوراق المطلوبة . فيش وتشبيه وحسن سير وسلوك وشهادة خلو من الأمراض وإقرار بقبول الوظيفة التى وسوف تعرض عليها .. كان هناك عد كبير من الشباب مثلها .. حماس وحيوية ونشاط .. سألت عن طبيعة الوظيفة ..

* ليست وظيفة بالمعنى المألوف .. سوف نقوم على تدريبكم وتأهيلكم من الناحية الصحية والاجتماعية والنفسية ..

هكذا قالوا لها .

* ثم ماذا .. المهم الوظيفة .

* لقد إستعنا بنخبة من أفضل الخبرات فى شتئ المجالات لتدريبكم وتأهيلكم للوظيفة .. المشروع سيتكلف إنفاقا باهظا لإعداد قاعة للتدريب وتزويدها بالأجهزة اللازمة والاستعانة بجهاز إدارى متخصص .

* ثم ماذا .. الوظيفة .. ماذا ستكون الوظيفة ..

* سميعها معاونة .. راعية .. مساعدة .. مرافقة ..

* لمن .. معاونة لمن .. وراعية لماذا .. ومساعدة ومرافقة أين؟؟

* مهمه إنسانية جليلة .. تتطلب وعيا وذكاء واستعداداً طبيعيا للعطاء .. أما المرتب فكبير . لايقل عن ٣٥٠ إلى ٤٠٠ جنيها شهرياً.

السوق اليوم يحتاج لمثل هذا العمل .. الأمهات أصبحن يعملن

ولا وقت لديهن لرعاية الأبناء ليس عندهم فائض من الوقت ليعطوه للآباء والأمهات لإنشغالهم بأسرهم الصغيرة . الوظيفة المعروضة أن تقوموا بدور هؤلاء .. دور الأم الغائبة والأبناء المشغولون عن آبائهم وأمهاتهم .

شهقت أم غادة وخبطت على صدرها ..

- يا لهوى .. ياخرابى ... بعد كل هذه المعاناه .. بعد الكفاح والشقاء لتحقيق حلمى بأن تتخرج إبنتى الوحيدة موظفة قد الدنيا تعيد نفس مأساتى وتعمل شغالة فى البيوت !!

شقة جارى

كان فى أواخر الخمسينات من عمره مديرا عاما للشئون الخارجة بإحدى المصالح الحكومية .. مهيب المنظر .. رشيق القوام .. نشيط الحركة . كان يسكن الشقة المجاورة لنا كنت أراه كل صباح وأنا ذاهبة إلى عملى وقد امتلأ نشاطا وحيويته متجها إلى عمله هو الاخر .. كنا نتبادل التحية والسؤال عن الصحة والأحوال ثم يذهب كل منا فى طريقة إلى أن اختفى يوما ولم أعد أراه ذاهبا الى عمله كل صباح ..

سألت زوجته عنه فأجابت والحسرة تملأ وجهها أنه أحيل إلى المعاش .. تعجبت أن رجلا فى مثل نشاطه وحيوته وحماسه للحياة يمكن أن يحال إلى المعاش لكنه سن الستين اللعين الذى يحتم على الإنسان أن يتقاعد رغم أنه فى كامل قدرته على العطاء.

سألت زوجته ولماذا لم يطلب مد خدمته كما يفعل كثير من موظفى الدولة أجابت ونفس الحسرة تملأ وجهها أنهم ردوا عليه فى قسوة أن هناك الآلاف من الشباب لايجدون الوظيفة فكيف يفضلون الشيوخ على الشباب ويمدون لهم فى خدمتهم .. إن مرتب موظف فى الستين يكفى مرتبا لخمس أو سته من شباب الخريجين.

إبتلعت ألمى ولذت بالصمت .. منطق معقول والعمارة عندنا مثلا بها ما لايقل عن عشرين شابا وشابه تخرجوا من الجامعة منذ سنين ولايجدون الوظيفة ، تحينت فرصة خروجه من المنزل ذات مساء

.. وكان منذ تقاعده قد أغلق على نفسه باب شقته ولم يعد يخرج إلا لماما .. نوع من الإحتجاج الصامت على موقف الحكومة منه .. تحينت هذه الفرصة وسألته عن الصحة والأحوال كالعادة ثم وجهت إليه سوالا مباشراً .. لماذا لايعود إلى تأليف الكتب المدرسية وخاصة فى مجال تعليم اللغات كما كان يفعل من قبل.

إبتسم فى مرارة وأجاب أن هناك عشرات بل مئات من مؤلفى الكتب المدرسية فى مجال تعليم اللغات ولم يعد سوق العمل يحتاج للمزيد منهم .. إنه الزحام يا ابنتى بل إن شئت الدقة إنه التزاحم والتكالب على الأشياء .. فلم يعد الموظف يقنع بمنصب واحد فى العمل ..

فلا أقل من أربع أو خمس مناصب وكذلك الحال فى مجال التأليف لم يعد الواحد منهم يقنع بكتاب أو كتابين .. فلا أقل من خمسة كتب .. لم يعد لى مكان وسط كل هؤلاء .. لهذا آثرت العزلة والتقاعد صيانة لكرامتى .

استدار وتركنى وانصرف وهو ينزل درجات السلم فى صعوبة ولأول مرة ألاحظ أن ظهره قد إنحنى قليلا وأن خطواته لم تعد ثابتة كما كانت من قبل .

لسبب أو لآخر شعرت أننى أود أن اقدم له يد المساعدة .. فليس من المعقول أن تدفن كل خبراته ومواهبه لمجرد أن هناك تكالبا وتزاحما على المناصب فى ميادين العمل وهو إنسان شديد

الحساسية والحياء .. شديد الإعتزاز بكرامته..

كنت فى وظيفتى بإحدى شركات القطاع الخاص أرى عشرات من الشباب الخريجين يقدمون طالبين التعيين بالوظائف لكنهم كانوا دائما يرسبون فى إمتحان القبول لعدم إجادتهم للغات .

للحظة طرأت ببالى فكرة جريئة .. لماذا ؟؟ نعم لماذا لانستفيد من خبرة جارى .. هذا الأستاذ العلامة الجليل فى تعليم هؤلاء الشباب وتدريبهم على تعليم اللغات .. لكن كيف .. هل أعرض هذه الفكرة على رؤسائى فى العمل ..وماذا لو رفضوا ..

فى مساء أحد الأيام .. وكنت قد عدت متأخرة من عملى فإذ بى أفاجأ بشقة جارى مضاءة وأصوات شابة تنبعث منها .. دهشت لهذا التغيير الذى حل بالشقة وكنت أراها .. بعد تقاعده .. مظلمة دائما .. ولاصوت ينبعث منها ، تحينت فرصة مقابلتى لزوجة جارى أمام باب شقته وسألتها عن سبب هذا التغيير .. أجابت الزوجة والفرحة تملأ وجهها .

لقد لجأ إليه واحد أو اثنان من شباب العمارة ليعطيهم دروس تقوية فى اللغة الإنجليزية ثم اتسعت الدائرة وأصبح لديه الآن عشرة تلاميذ وقبل أن أبدى فرحتى بهذه الخطوة الرائعة أردفت :

* إنه يقوم بهذا العمل تطوعا ودون مقابل بدلا من الفراغ بل قولى من الضياع ..

لـم يقصـد طبعـا

عندما قالوا لى إجلسى معه وتدراسا معا الموضوع لم اعترض فهو زميل قديم وأنا أعرفه جيدا وأثق فيه كثيرا ، ومع أن الوقت كان ليلا والمكان خاليا تماما إلا منى ومنه فلم يساورنى أى شك أو سوء ظن تجاهه ابدا .. فأنا أعرفه جيدا ..

شاب خجول منطوٍ دمث الخلق ، والموضوع الذى عهدوا الينا به كان موضوعا شائكا صعبا ولاوقت أمامنا لشئ إلا لبحثه ..

أخذت أحدثه عن تفاصيل الموضوع وعن التقاط التى يجب أن نبحثها معا ..

ولكنى لسبب ما وجدته شارداً عنى تماما مستغرقاً فى التفكير .. للحظة أحسست أنه يتأمل وجهى ويسرح بعينيه فيه .. لكنى استمررت فى الحديث عن الموضوع مرة أخرى .

نزلت عيناه إلى رقبتى وصدرى .. أجفلت قليلا لكنى استبعدت كل خاطر سيئ من مخيلتى .. لا لم يقصد بالطبع ..

تحججت بحجة كتابة ما توصلنا إليه وابتعدت عنه فى ركن من الحجرة لكى أعكف على كتابته ..

ظل مستمرا مكانة لايتحرك .. لم آبه وواصلت الكتابة بكل بحماس .. نظرت إليه بطرفى عينى وجدته ينظر إلى .. تحاشيت

نظراته وواصلت الكتابة لكنى هذه المرة وجدت نفسى أرتعد .. نظراته إلى أخافتنى ولأول مرة أدرك أننا وحدنا بالغرفة وأن جميع من كانوا بالمكتب قد انصرفوا.

عدت إليه لاقرأ عليه ما كتبت .. لم يصغ إلى بل وجدت نظراته تتصفح جسدى جزءا جزءا وعينيه تدوران فى محجريهما بشكل مرعب ..

طويت ما كتبت ونهضت لأنصراف فقد أعيتنى الحيلة معه .. أمسك بى .. عانقنى ثم... نهضت من نومى فزعة ..

وجدت الحجرة مضاءة وجريدة مفتوحة بين يدى لم أقرأها طالعنى خبر فى صفحة الحوادث عن حادثه اغتصاب .. الجديد فيها أن الجانى فيها كان امرأة والمجنى عليه رجل ..

هــذه البنت

بينما كان حلول العيد يعنى بالنسبة لأترابها صناعة كعك العيد وشراء الملابس الجديدة والخروج إلى الحدائق والمنتزهات كان قدوم العيد بالنسبة لها مصحوبا دائما بزيارة صديق والدها الأستاذ / منير حلمى وزوجته وابنتيه لأسرتها حاملين معهم بعض الهدايا الرمزية من صنع أيدى بنات « عمو منير » كما كانت تسميه .. مفارش كانافاه .. زهور صناعية .. لوحات فنية . . فقد كانت بنات « عمو منير » فنانات بطبعهن يتمتعهن بقدر كبير من الرقة والحساسية وحب الناس فكن يقمن على صناعتها بأيديهن الرقيقة طوال العام لتقديمها لعائلتها ليلة العيد تعبيرا عن الحب الكبير الذى يشعرن به تجاههم .

ولأنها كانت لاتزال طفلة صغيرة فهى لم تدرك علاقة هذه الزيارة بذلك المشهد الذى كثيرا ما كان يتكرر أمامها صبيحة أيام الجمع عندما كان والدها يصحو مبكرا ليرتدى ملابسه حاملا فى يده بعض الحلوى والفاكهة متجها بها إلى احدى المستشفيات العامة للاطمئنان على « البنت ».

لم تكن تدرى حينذاك من هى « هذه البنت » ولماذا يذهب والدها لزيارتها صبيحة أيام الجمع .. كل ما كانت تعرفه أن والدتها كثيراً ما كانت تشفق على والدها من عناء هذه الزيارات

أيام راحته فكانت تقول له :

هذا كثير عليك يا حسن .. يوم راحتك تقضيه بين المرضى هل تتصور أن « البنت » تشعر بوجودك أو يهمها كثيراً أمر هذه الزيارات .

وكان والدها .. الذى قلما كان يثور .. يرفع صوته حينذاك معاتبا :

من يسأل عنها إذا لم أسال عليها أنا .. أم تتصورين أنه إذا مرض إنسان منا وحكم القدر عليه بالعزلة عن عالم الإصحاء فإننا نتخلى عنه نتبذه .

لم تكن تدرى وهى بعد صغيرة لماذا كان والدها يغضب من أمها على هذا النحو فقد كانت هى الأخرى تشعر بحاجتها إلى والدها لتقضى معه صباح يوم أجازتها هى وأختها وكانت تتساءل فيما بينها وبين نفسها لماذا يتركهم ويذهب إلى هذه الفتاة !!إلى أن كان ذلك اليوم الذى جاء فيه « عمو منير » وعائلتهم لزيارتهم عندما رأته ينتحى بوالدها ركنا بعيداً عن المجموعة ويهمس له بكلام لم تسمعه.. كانت هى عادته كلما جاء لزيارة عائلتها ولم يكن يهمها كثيرا فيما كانا يتحدثان لكنها فى ذلك اليوم تعمدت أن ترهف السمع إلى حديثهما .. كان والدها يتحدث عن هذه الفتاة مع صديق عمره «منير » عن البنت وكان عمو منير يسأل والدها :

* ألم يحن الوقت لأذهب لزيارتها والاطمئنان عليها « ست البنات»

* إنها لازالت لاتحس بما حولها فلماذا تعذب نفسك بالزيارة .. كنت تزورها فيما مضى فماذا حدث كدت أنت الآخر تنهار .. ثم ألا يكفيك أنني أذهب لزيارتها نيابة عنك للاطمئنان .. لاتكن طماعا يا منير .

* مشاعر أب ثكل في ابنته وهي لاتزال على قيد الحياة .

* هذا قدرها .. قدر الإنسان ذو الحس الرقيق إذ ما قست عليه ظروف الحياة .

* لها على هذا الحال سنوات .. عشت على الأمل طويلا .. أكاد أيأس من الشفاء .

* لاتقنط أبدا من رحمة الله.

كان والدها يحاول الابتسام ليخفف من قسوة الموقف وكان «عمو منير » يحاول هو الآخر أن يبادله الإبتسام .

في هذه الحظة حانت منها التفاته حولها إلى الاشياء التي أتت بها بنات « عمو منير » كتعبير عن الصداقة التي تربطهن بعائلتها .. مفارش كانافاه .. زهور .. لوحات .. ووجدت نفسها تهمس من اعماقها

« يا الهي .. ما أرق هذه الأشياء !!!

لشد ما كنت بحاجة إليه - إلى زوجى الحبيب وخاصة بعد تلك الحالة المرضية التى آلمت بى مؤخرا - كنت بحاجة إلى يده الحانية تربت على كتفى وإلى كلماته العذبة تثلج صدرى ومشاعره الفياضة التى يحيطنى بها دائما وخاصة فى تلك اللحظات التى كنت أشعر فيها بالعجز لشد ما كنت أتوق الى كل ذلك - لكنه كان شئ بعيد المنال فقد كان فى ذلك الوقت مشغول بعملياته الجراحية التى يجريها بأحد المستشفيات العسكرية وكانت قد أمتلأت عن آخرها بالمرضى والجرحى نتيجة للحروب المختلفة بالمنطقة والتى كان نصيب مصر منها أن تطيب جراح المصابين الذين يقدمون إليها بالمئات .

ولكن ما ذنبى أنا فى كل هذا - أنا أيضاً مريضه ووحيدة بعد أن كبر الأولاد وانفضوا من حولى وبحاجة الى علاج وليس هناك أقرب لى من زوجى الحبيب - ولكن أين هو وكيف ألقاه وهو لايعود إلى المنزل إلا فى ساعات متأخرة من الليل وأحيانا مع تباشير الصباح وهو منهك القوى لايقوى على مجرد الكلام ناهيك عن الحب والحنان..

ذات ليلة فاض بى الكيل وكدت أصاب بالانهيار - فى شرع من يحدث ذلك أن يعطى زوجى كل جهده هكذا للآخرين وأظل - أنا محرومة من حنانه وعطفه ورعايته .

زوجى لم يكن مقصرا فى حقى فى شئ فقد كان يعطينى حقوقى

كاملة - ولكن الحب والحنان كيف أعوض حنانه وعطفه وحبه لى ..
أشار على البعض أو أقتنى حيواناً إليفاً أربيه وأرعاه فيؤنس وحدتى .

عملت بما أشاروا على به - جئت بقطة صغيرة رائعة الجمال نظيفة إلى أبعد الحدود - شقية شقاوة لامثيل لها .

كنت أضع لها المأكل والمشرب وأعتنى بنظافتها إلى الحد الذى تماديت فيه فاحضرت لها كل أنواع الصابون غالى الثمن والشامبو والبرفانات ..

وبعد فترة من إقامتها معى وجدتها تنطوي على نفسها وتنام معظم الوقت وبت أفتقد حيويتها وشقاوتها ولعبها.

حرت فى أمرها - ذهبت بها إلى طبيبة متخصصة - فحصتها فحصا جيدا ثم ضحكت وقالت لى أن قطتى قد أصابها ما يصيبنا نحن البشر أحيانا الاكتئاب ..

حرت فى الأمر - كيف يصيبها الإكتئاب وأنا أرعاها كل تلك الرعاية ولا أبخل عليها بشئ من حنانى وعطفى ورعايتى .

همست لى الطبيبة المعالجة :

- قطتك بحاجة إلى وليف ..

شهقت شهقة كبيرة « وليف » تعنين أنها بحاجة لزوج

هزت الطبيبة رأسها بالإيجاب .

أتيت لقطتى بالوليف - قط من قطط الجيران .. كان مثلها يتميز بالشقاوة والحيوية والجمال .وخصصت لهما مكانا من حديقة

منزلى وضعت لهما فيه كل ما يلزم من مأكل ومشرب حتى ينعما بالحرية والخصوصية بعيدا عن عيون المتطفلين ..

لم تمر عى ذلك سوى بضعة شهور إلا ووجدت قطتى تعود إلى حالة الاكتئاب مرة أخرى .

بحثت عن السبب فراعنى أن الزوج - القط الذى أتيت لها به قد هجرها ورحل تماما عن المكان .. عجبت للأمر - أيكون للحيوان نفس المشاعر الى تشعر بها نحن البشر - الحب والإخلاص والرغبة ُى المؤانسة والوصال ..وهكذا وجدت أن محاولتى للتسرية عن النفس باقتناء تلك القطة العزيزة قد باءت بالفشل - فقد أصبح فى المنزل مكتئبان بدلا من مكتئب واحد .

وأصبح لزاما علينا أنا وقطتى أن نبحث عن حل آخر نتغلب به على حالة الأكتئاب التى أصابتنا ..

وبعد أيام وجدت قطتى تعود إلى سابق مرحها وشقاوتها

حاولت أن أفهم السبب - وبعد مراقبه وفحص وتدقيق وجدت داخل المكان الذى خصصته لها قط غريب .. عندئذ وجدتنى أثور ثورة عارمة عليها وعلى وليفها وأطردهم خارج المنزل والحديقة وأهد عشهما تماما ..

وأعود فأتذكر زوجى وتضحياته ومعاناتى أنا من أجل تفرغه لعمله الإنسانى الرائع

وأستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ...

حديقة سامى باشا

فى أحيان كثيرة تذكرك رائحة ما أو أغنية ما أو منظر ما بأشياء أو أحداث مررت بها فى حياتك فتثير فى نفسك فيضا من الذكريات .

رائحة زهر البرتقال مثلا تذكرنى على الفور بامتحانات آخر العام وما يصحبها من قلق وتوتر ومعاناة مع حنين متاجج فى القلب إلى التفتح والحب والحياة .

رائحة البحر بالإسكندرية تذكرنى دائما بشاطئ « جليم » و« ستانلى » وقد كانا مفخرة البلاجات جميعا - وكيف كنا نلهو على الشاطئ ونحن بعد اطفالا وشبابا خلال شهرى يوليو وأغسطس وكان الشهران هما شهرا الاصطياف بالنسبة لنا .

أغنية عبدالحليم حافظ « بتلومونى ليه » أو أغنية فايزة أحمد « يا أما القمر على الباب » تذكرنى فورا ببداية سنوات الزواج وأحلام الصبا والشباب وعهود الحب والإخلاص .

أما ما أثار الذكريات عندى مؤخرا فهى حادثة مختلفة تماما فقد كنا فى طفولتى نسكن فى منزل يطل على قصر منيف « تحول الآن إلى عمارات سكنية ضخمة بشعة المنظر » هذا القصر الكبير كنا نعرفه ونحن أطفال بأنه قصر سامى باشا .. أما من سامى باشا

هذا ؟ .. فلم يكن يعنينا فى شئ ـ المهم فى الأمر أن الحديقة كانت مليئة بأشجار المانجو الضخمة وكانت « الشغالة » التى تعمل لدينا وأسمها سودانية لشدة سمار وجهها ـ كانت سودانية تدخل حديقة سامى باشا خلسة لتلتقط ثمرات المانجو الناضجة التى تسقط من أشجارها وتلتهمها وحدها بعيدا عن أعين الجميع .

وكنا ونحن أطفال نتوق إلى تذوق هذه الثمرات الناضجة الفواحة ولكن الوالدة كانت تنهرنا بشدة وهى تحذرنا من أن هذه الثمرات لاتحل لنا لانها ملك لسامى باشا وعائلته وفى ذلك اعتداء على ممتلكات الغير وربما تندرج أيضا تحت بند السرقة .

إلا أن الشيطان كان يوسوس لنا أحيانا بان نأخذ بعض تلك الثمرات من الشغالة لمجرد تذوقها لا أدرى لماذا شعرت وأنا أغوص بفمى داخل الثمرة أنها أطيب مذاق تذوقته فى حياتى ـ ربما كان ذلك لأنها نتاج حديقة سامى باشا من باشوات زمان بكل ما يحمله هذا الاسم من فخامة وأبهه وعالم ساحر مرفه منعم وربما لأنها ثمار محرمة علينا بأوامر من ماما العزيزة وكل ممنوع مرغوب .المهم فى الأمر أننا كبرنا أنا وأخوتى وتزوجنا وتغيرت الظروف كثيرا بعد قيام الثورة ولكن جاء تصيبى أن أسكن الحى الراقى نفسه الذى عشنا فيه صغارا وأن يكون لمنزلى حديقة صغيرة ليست مثل فخامة

سامى باشا ولكنها حديقة على أى حال وأن ينشأ ابنى محبا للزرع والغرس بكل انواعه وأن يزرع بالحديقة أنواعا مختلفة من الاشجار مثمرة وغير مثمرة لمجرد اشباع هوايته ولم أكن أعير تلك الأشجار التفافا كثيرا ..

إلا أن الذى حدث أن جاءنى ابنى يوما ليبشرنى وهو يكاد يطير من الفرحة بأن شجرة المانجو التى غرسها بحديقة المنزل منذ سبع سنوات قد أثمرت ويعطينى بعض حبات من المانجو ما كدت أتذوقها حتى شعرت بفيض من ذكريات منزلنا القديم وحديقة سامى باشا وثمرات المانجو المحرمة .. فقد كانت تلك الثمرات التى أتى بها ابنى نتاج جهده ورعايته مشابهه تماما لثمرات المانجو فى حديقة سامى باشا ولها المذاق نفسة .

هذيان

فى صيف عام ١٩٧٧ جاءتنى منحة دراسية أثناء عملى بوزارة الاقتصاد بأحد المعاهد التابعة لجامعة « جورج تاون » بالعاصمة الأمريكية واشنجطون وذلك لمدة شهرين.

كنا نقيم . نحن أعضاء البعثة الدراسية فى مبنى كبير مقسم الى شقق أو اجنحة مستقلة مخصصه لسكن الدارسين .

كانت المحاضرات بالمعهد تنتهى فى الساعة الخامسة مساء نعود بعدها الى المنزل ثم نظل محبوسين فى شققنا حتى اليوم التالى . أما شراء الطعام وخلافه فكان يتم أيام العطلة الأسبوعية فبهذا قضت الأوامر .

فرغ الطعام من عندى يوما ولم أجد ما يقيم أودى ولو حتى للمساء . وحرت فى أمرى كيف آتى بالطعام وقد تجاوزت الساعة السادسة وقد حذرونا مرارا من عدم النزول الى الشارع بعد أن يحل الظلام . اتصلت بزملائى الرجال الأعضاء معى فى البعثة وكانوا يقيمون بالشقة المجاورة لشقتى لعل أحدهم يعاوننى فى النزول الى السوبر ماركت القريب لشراء لوازمى بعد أن شرحت لهم الموقف بالتفصيل . إعتذروا جميعا فى لباقة تنفيذا للتعليمات والتحذيرات التى أملوها علينا منذ أن وطات اقدامنا هذه البلاد .

إزاء هذا الرفض القاطع من جانب زملائى حزمت أمرى وحملت حقيبة مشترياتى ونزلت الى الشارع ومنه إلى السوبر ماركت القريب.

اندمجت فى الشراءما يلزمنى وما لا يلزمنى بكميات كبيرة خوفا من أن أتعرض لمثل هذا الموقف مرة أخرى ..

بعد اتمام الشراءحاولت أن أحمل مشترياتى ولكنى وجدتها ثقيلة جدا - بدا على الارتباك ماذا أفعل .. فى تلك اللحظة - وكأن الله قد بعثه إلى من السماء وجدت طفلا صغيرا لايتجاوز العاشرة زنجى - ينظر الى من بعيد وعلى وجهه البرئ نظرة رثاء لحالى مما دفعنى الى أن أشير له يحمل المشتريات معى الى المنزل مقابل مكافاة سخية - رحب الطفل على الفور وحمل معى المشتريات وسرنا معا نحو المنزل .. ظل طوال الطريق يحكى لى عن حياته ومدرسته وأسرته ويسألنى سؤالا بعد الآخر عن البلد الذى أتيت منه ولماذا أن هنا فى هذه البلاد . ظللنا نتجاذب أطراف الحديث كأصدقاء حميمين حتى وصلنا الى المنزل .. عرض على أن يوصلنى حتى باب شقتى فلم أمانع .. دخلنا المصعد وحمل مشترياتى حتى مدخل الشقة وهم بالانصراف وأنا أناوله أجره ولكن فتح باب الشقة المجاورة التى يسكنها الزملاء - فما أن رأواه هذا الموقف حتى

استشاطوا غضبا وظلوا يؤنبونني على فعلتي النكراء هذه ..
فكيف أستعين بطفل زنجي من الشارع لكي يعاونني في حمل مشترياتي بل ويوصلني حتى باب الشقة ـ وكان الطفل يبتسم لي مودعا في دماثة خلق وبراءة بينما زملائي يرددون عي مسمعي كل التحذيرات التي سمعناها وحفظناها عن ظهر قلب عن خطورة النزول الى الشارع بعد الخامسة مساء وعدم التحدث أو التعامل مع الاغراب خصوصا الملونين منهم ويرددون كلاما كالهذيان عن الطفل الوديع البريء مؤكدين لي أن الطفل كان من الممكن أن يسرقني أو يقتلني ونحن نسير في الطريق ..

نظرت الى زملائي في مرارة وتذكرت موقفهم الشائن مني ورفضهم النزول معي إلى السوق وتذكرت أنهم كانوا ـ يتركونني وحدي بشقتي بعد انتهاء اليوم الدراسي رافضين مبدأ الخروج للتريض أو لزيارة الأمنكة ربما حرصا على توفير بدل السفر لشراء طلبات الزوجة والأولاد وكانوا يقولون في دعابة أنهم ربطوا الفوطة الصفراء حول رؤوسهم كناية عن انتهاء اليوم بالنسبة لهم كما كان يفعل سائقو التاكسي بالقاهرة في ذلك الوقت تعبيرا عن امتناعهم عن العمل لسبب أو لآخر .

تذكرت أيضا أنني لشدة شعوري بالوحدة وأنا المرأة الوحيدة

بالبعثة كنت أستقل المصعد هبوطا وصعودا تبديدا لوحدتي ..

ظل زملائي يلقون على مسامعي النصائح والتحذيرات ناعتين الصبي الزنجي المسكين . بكل النعوت السيئة عندئذ وجدتني أصرخ فيهم بكل المرارة والألم.

ـ ما تقولونه عن الطفل هذا هو هذيان فأنا لا أراه كذلك على الإطلاق .

الفهـــرس

للمؤلف

١ـ أكثر من شئ	مجموعة قصصية	١٩٨٣	الهيئة العامة للكتاب
٢ـ الحياة فى خطر	رواية	١٩٨٣	دار الحرية
٣ـ أمرأة بداخلى	مجموعة قصصية	١٩٨٩	الهيئة العامة للكتاب
٤ـ أين ذهب الحب	مجموعة قصصية	١٩٩٩	دار قباء للطباعة والنشر
٥ـ مشكلتك لها حل	قصص من الحياة	٢٠٠٠	دار قباء للطباعة والنشر
٦ـ امرأة بين الرجال	رواية	٢٠٠٤	مركز الحضارة العربية
٧ـ تجربتى فى السينما والتليفزيون	دراسة فى السيناريو مع	٢٠٠٤	سلسلة أفاق سينمائية
٨ ـ أضواء على السيرة الذاتية			الثقافية الجماهيرية

•• صدر من هذه السلسلة

١. آلام صغيرة وقصص أخرى . الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨ .
٢. يوميات عروبة . د. هانى الرفاعى.
٣. ما رواه البحراوى . عبد الرحمن شلش.
٤. أبناء نادى القصة . محمد محمود عبدالرازق.
٥. زوجتى لاتريد أن تتزوجنى . فتحى سلامة.
٦. الحى الراقى . فتحى مصطفى.
٧. الياسمين يتفتح ليلا . عزت نجم .
٨. حدائق السماء . محمد سليمان.
٩. الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين . الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة.
١٠. دلونى على السبيل . محمد الشريف.
١١. الجدة حميدة . حسن الجوخ.
١٢. فستان زفاف قديم . على عيد.
١٣. بحر الزين . حسن نور.
١٤. من أوراق العمر . محمد كمال محمد.
١٥. إحراج . نادية كيلانى.
١٦. البنات . هدى جاد.
١٧. عاد الأسد.. أسداً نبيلا . عبدالمنعم السلاب.
١٨. عراف السيدة الأولى . محمد القصبى.
١٩. حكايات عن العربيد . صلاح عبدالسيد.
٢٠. السلمانية . صلاح معاطى.
٢١. الفائزون أول القرن الحادى والعشرين . الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة.
٢٢. صبحى الجيار والمحنة المضيئة . مصطفى عبد الوهاب.
٢٣. الرغبة الوحيدة . صوفى عبدالله.
٢٤. الغزال فى المصيدة . محمود البدوى.
٢٥. خراط البنات . صفوت عبدالمجيد.
٢٦. القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع . حسين عيد.
٢٧. حوار مع جنية . عصام الصاوى.
٢٨. ليلة موت . عبد الحميد الفداوى.
٢٩. حبيب حبيبى . درويش الزفتاوى.

٣٠. لقاء غير متوقع - محمد صفوت.
٣١. التوأم وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة.
٣٢. أكثر من عمر - عبدالفتاح مرسى.
٣٣. من حياة الحياة - رستم كيلانى.
٣٤. فرحة الأجراس - عبدالعال الحمامصى.
٣٥. أنا .. ونورا .. وماعت - رفقى بدوى.
٣٦. الليلة الثانية بعد الألف - مختارات من القصة النسائية فى مصر - إعداد وتقديم يوسف الشارونى.
٣٧. ثلاثية آدم وحواء - عماد الدين عيسى.
٣٨. الأحلام تتمشى فى الذاكرة - محمد الفارس.
٣٩. بين الحكى والنقد - نبيل عبدالحميد.
٤٠. مواسم الشروق - أحمد الشيخ.
٤١. السقف والناب الأزرق - فؤاد قنديل.
٤٢. الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة لعام ٢٠٠٢ .
٤٣. خمس سنوات رملية - سمير درويش.
٤٤. القصة والرواية فى السبعينيات - د. يسرى العزب.
٤٥. الضوء والظلال - محمد قطب.
٤٦. عين طفل - د. مرعى مدكور.
٤٧. فنون روائيه - محمود عبدالوهاب.
٤٨. عطر المشمش - أمين بكر.
٤٩. أولاد الأفاعى - خليل الجيزاوى.
٥٠. رواية زوينة - محمد جبريل .
٥١. التعدد والتباين - أحمد عبدالرازق أبو العلا.
٥٢. فيل أبيض وحيد - د. محمد حسن عبدالله.
٥٣. العذاب والصمت - لويس يعقوب.
٥٤. عواطف دافئة - وفية خيرى .

الإصدار القادم

احداث منتصف الليل الهادئ

رأفت سليم

الناشر
دار النيل
للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شارع عبده بدران
م الباشا - المنيل
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

الترقيم الدولى
977 - 5414 - 79 - 2